حوار العاذلة في الشعر القديم

د.خالد ناجي السامرائي
جامعة بغداد - كلية التربية للبنات - قسم اللغـة العربية

الملخص
العذل في الشعر، نسق من الصياغة الشعرية، يستحضر فيه الشاعر صوتاً اخر غير صوته المباشر او يجرد من نفسه نفساً اخرى يحاورها على سبيل التقليد الفني المتوارث الذي لا يعرف جذره، مثلما وقف الشعراء على الطلل وبكوا الضعن وكلموا الحجارة والاثافي، كل ذلك على سبيل التقليد الفني، والعذل الذي يجابه الشاعر يصدر دوما عن امرأه لان اللوم والملاحاة والعذل اقرب الى نفوس النساء منه الى نفوس الرجال، والعذل يدور حول مواقف من بعض القضايا الاجتماعية مثل الافراط في تشراب الخمور والاسراف في الكرم وركوب الاهوال والسفر والتغرب والشيب وغيرها
يلح الشعراء القدامى على موضوعات بعينها ويكثرون من طرقها، من ذلك حقيقة ان النساء يحببن المال ويفتدين صاحبه بالغالي والنفيس ،
ان عصيان العاذلة من مفاخر الشعراء اذ صرحوا بهذا في مواضع كثيرة وعدوا عصيانهم لعواذلهم دليل رسوخ ايمانهم بافكارهم واعتزازهم بسلوكهم.
والعذل يمثل موقفاً رافضا لامر ما او اقرارا لممارسة اجتماعية تواجه باعتراض الصوت الاخر او تعبيرا عن فلسفة الشاعر في قضايا الموت والحياة والشاعر دائم الشكوى من هذا اللوم يضيق به ذرعاً ويرفض الاذعان له، والعواذل يتعبن الفتى مع ان الفتى لا يسمع ويحث رفاقه على عصيان عواذله
ومثلما اتبع الشعراء الجاهليون هذا التقليد الفني اتبعه المخضرمون ايضاً ولم تشغلهم حتى الدعوة الاسلامية عن اتيانه والتمتع باتباع نهج الاولين في نظم الشعر فنرى حسان بن ثابت مثلاً شاعر الرسول (ص) غير مدافع لايجد ضيراً ولا حرجاً من تنويع اساليب قصائده حتى وهو المشغول بالدفاع عن الدعوة والذود عن رسول الله (ص) ومهاجمة قريش.
انه التقليد المتوارث الذي شغف به حسان وجيله من الشعراء ، ناهيك عن بقية الشعراء المخضرمين الذين لم يدخروا وسعا في تقليد اسلافهم في طرائق نظمهم واساليبهم واغراضهم .
هذا البحث يدرس بشئ من التفصيل ظاهرة من ظواهر الشعر الجاهلي لم تحض بالرعاية والتمحيص الكافيين، ونعني بها ظاهرة العذل، ويحاول الولوج الى عالم الشعر الجاهلي الساحر ليضع اليد على بعض جواهره الخفية ويظهرها للعلن، ندعو الله ان نكون قد وصلنا الى هذا الغرض بكفاية والله الموفق .

Censurer's dialogue in Classical Arabic Poetry

Dr. Khaled Naji al-Samarrai
University of Baghdad - College of Education for Women – Arabic Language Dept.

Astract
Censure in poetry is a pattern of poetic construction, in which the poet evokes a voice other than his own voice or creates out of his own self another self and engages with him in dialogue in the traditional artistic style whose origin remains unknown. Example of the same may be found in the classical Arabic poets' stopping over the ruins, crying over separation and departure and speaking with stones and andirons; all in the traditional technical mould. Censure confronting the poet usually emanates from the women as blaming, censure and cursing is closer to woman's hearts than to the man' hearts. Censure revolves around some social issues, such as the habit of over drinking wine and extravagant generosity taking risks, traveling, leaving home country and ageing etc.
Classical poets have insisted on these topics and have frequently used them in their compositions. One such fact doing the rounds is that women love money and they are eager to sacrifice everything for the sake of money.
The disobedience of the censurer is something the poets have been proud about, and they have stated the same in many places. Their disobedience to their censurers is a proof of their staunch faith in their thoughts and their pride in their own behave or.

The censurer represents a rejection of something, or social practice facing the objection of other voice or expression of the pot's philosophy on the issues of death and life; the poet always complaining about this censure gets fed up with it and refuses to surrender to him, the censurers follow the youth although the youth does not hear and urges his companions to disobey the censurers.

In the same way as the Jahili poets followed this technical tradition, the *mukhadram* poets also followed suit, they remained beholden to it even the arrival of Islamic *dawah* could not turn them away from it and could not deter them from following in the footsteps of the first generation of poets in their compositions. We see Hassan bin Thabit, the poet of Prophet Mohammad (Peace be upon him) going on without any hesitation in diversification of the styles of his poems even while defending Islam and defending the Prophet and attacking the Quraish tribe.

This is the traditional legacy which was keenly pursued by Hassan and the poets of his generation and other mukhadram poets who followed completely in the footsteps of their forefathers in their themes, styles and ways of composition.

The present paper will dwell in some detail on one of the phenomena of Jahili Arabic poetry which has hitherto not received much attention i.e. the phenomenon of censure. The study aims to take a peep into the magical world of Jahili poetry to identify some of its hidden aspects and bring them out for all. We pray to Almighty Allah to help me achieve this goal.

التمهيد

العاذلة لغة :

عذل (العذل) اللوم ، والعذل مثله ، عذله يعذله عذلا وعذله فاعتذل وتعذل : لامه فقبل منه وأعتب ، والاسم العذل وهم العذلة والعذال والعذل والعواذل من النساء : جمع العاذلة ، ويجوز العاذلات ، ابن الأعرابي :العذل : الإحراق ، فكأن اللائم يحرق بعذله قلب المعذول ، وأنشد الأصمعي :

لـــوامـــــة لامت بلـــــوم شهب

وقال : الشهب أراد الشهاب كأن لومها يحرقه ، ورجل عذال وامرأة عذالة : كثيرة العذل ، قال الشاعر :

غـدت عـذالتـــاي فقلـت : مهلا أفـــي وجـــد بسلمى تعذلاني ؟

ورجل عذلة : يعذل الناس كثيرا مثل ضحكة وهزأة [١] .

العذل * الملامة وقد * عذله * من باب نصر والاسم * العذل * بفتحتين ويقال * عذله فاعتذل * أي لام نفسه وأعتب ورجل * عذلة * بوزن همزة يعذل الناس كثيرا مثل ضحكة وهزأة [٢] .

العاذلة اصطلاحاً :

لم تخرج دلالة العاذلة اصطلاحا عن دلالتها لغة ، اذ استخدم شعراء الجاهلية والشعراء المخضرمون مقطوعاتهم العذلية بما لا يخرج عن معنى العذل الذي ورد في معاجم اللغة واقيستها ، فالعذل في الاستخدام الشعري هو العذل في الاسخدام اللغوي ذاته ووظيفتهما واحدة فهو يدل على اللوم والعتب وهو بهذا المعنى في الشعر اينما ورد ، بل الاكثر من ذلك فان الاحراق الذي هو احد المعاني اللغوية للعذل مثلما اوردنا انفا قد ورد بهذا المعنى وهذه الدلالة في شعر البعض من شعراء الجاهلية كتأبط شراً الذي قال واصفاً عذل لائمته بانه يحرق جلده [٣] :

بَلْ مـن لِعَذَّالـةٍ أَشِـــبٍ حَرَّقَ باللَّوم جِلـدي أَيَّ تَحْرَاقِ

وهولم يكتف بهذه الشكوى بل ذهب الى ابعد من ذلك حين هدد عاذلته ان تدعه وشأنه والا فانه سوف يرحل الى حيث لايعرف احد ويهيم في الفيافي خلاصاً من العذل يقول :

عاذِلَتي إنَّ بعضَ اللَّومِ مَعْنَفَـةٌ وهَـلْ متاعٌ وإنْ أَبقيْتُـــهُ بـــاقِ

إني زَعِيمٌ لئن لم تتركُوا عَذَلـي أَنْ يَسْئَلَ الحيُّ عنِّي أَهـلَ آفـاقِ

أَن يَسْئَلَ القومُ عني أَهلَ مَعْرِفَةٍ فـلا يُخبِّرُهُمْ عـــــن ثابتٍ لاَقِ

العاذلة تقليداً فنياً :

وهو نسق من الصياغة الشعرية يستحضر فيه الشاعر صوتاً اخر غير صوته المباشر او يجرد من نفسه نفساً اخرى يحاورها على سبيل التقليد الفني المتوارث الذي لا يعرف جذره مثلما وقف الشعراء على الطلل وبكوا الضعن وكلموا الحجارة والاثافي كل ذلك على سبيل التقليد الفني ، والعذل الذي يجابه الشاعر يصدر دوما عن امرأه لان اللوم والملاحاة والعذل اقرب الى نفوس النساء منه الى نفوس الرجال والعذل يدور حول مواقف من بعض القضايا الاجتماعية مثل الافراط في تشراب الخمور والاسراف في الكرم وركوب الاهوال والشيب وغيرها .

ويلح الشعراء القدامى على موضوعات بعينها ويكثرون من طرقها ومن ذلك حقيقة ان النساء يحببن المال ويفتدين صاحبه بالغالي والنفيس ، يصف احيحة ابن الجلاح سيد الاوس امراته بانها تحتفي به حين يجلب لها مالاً فتعانقه مرة وتقبله اخرى وتفتديه ثالثة يقول [٤] :

عاذِلَتي إنَّ بعضَ اللَّومِ مَعْنَفَـةٌ وهَـلْ متاعٌ وإنْ أَبقيْتُـهُ بـــاقِ
اذا مـــا جئتها قـد بعت عذقـا تعانـق او تقبـل او تفـــــدي

وعصيان العاذلة من مفاخر الشعراء اذ صرحوا بهذا في مواضع كثيرة وعدوا عصيانهم لعواذلهم دليل رسوخ ايمانهم بافكارهم واعتزازهم بسلوكهم يقول امروء القيس وهو يفخر بجملة صفات تطبع شخصيته [٥] :

وكائـن تـرى لـــي مـــن كاشح وقمت وعاذلـــة قـــد عصيـت
وقـوم ضررت ، وقـــوم نفعت وقـــوم مدحت وقـــوم هجـــوت
وقـــوم جررت الى رشدهـــم وقـوم الى حتفهم قـــد دعـــوت
وقـــوم شهدت وغى وقعهـــم فمـــا ان اجبت ومـــــا ان ابيـت

والعذل يمثل موقفاً رافضا لامر ما او اقرارا لممارسة اجتماعية تواجه باعتراض الصوت الاخر او تعبيرا عن فلسفة الشاعر في قضايا الموت والحياة والشاعر دائم الشكوى من هذا اللوم يضيق به ذرعاً ويرفض الاذعان له ولعل اسماء بن خارجة كان متمكنا من تصوير هذا الضيق في قوله [٦] :

إنّـــي لَسائِلُ كُـــلِّ ذي طِـــبٍّ مـــــاذا دواءُ صَبابـةِ الصـــبِّ
ودواءُ عاذِلَـــــةٍ تُباكِرُنـــــي جَعَلتْ عِتابـــــي أوجَـبَ النَحْبِ
أوَ ليسَ مِـــنْ عَجبٍ أُسائِلُكـــم مـــا خطـبُ عاذِلَتي ومَـا خَطبِـي
أَبِهَـا ذَهَـابُ العَقـــلِ أم عَتَبَتْ فأُزيدَهَـــــا عتبـاً علـى عتـــبِ
أوَلـــم يُجربْني العَـــــواذِلُ أوْ لـــمْ أبـلُ من أمثالِهَا حَســـــــبِي
مـــا ضرَّهَـــا ألا تُذَكرَنـــــي عيشَ الخِيـامِ ليالي الخِـــــــبِّ

فالعواذل يتعبن الفتى مع ان الفتى لا يسمع ويحث رفاقه على عصيان عواذله يقول سهم بن حنظلة الغنوي شاكياً من الحاح العواذل وداعيا الى عدم سماعهن واعارتهن الاهتمام [٧]:

إنَّ العـواذِلَ قـد أتعبنَني نَصَبَـا وَخِلتُهُنَّ ضعيفاتِ القُـــوى كُذُبَـــا
ألغادِياتِ عَلَـى لَومِ الفَتَى سَفَهاً فِيمَـــا استفادَ ولا يَرْجِعْنَ ما ذهَبَـا
يا أيُّها الراكبُ المُزْجِي مَطيَّتَـــهُ لا نِعمَـــةً تَبتَغي عندي وَلا نَسَـــبا
اعص العَواذِلَ وَارمِ الليلَ عَـــنْ عُرُضٍ بذي سَبيبٍ يُقَاسي لَيلَهُ خَبَبا

ومثلما اتبع الشعراء الجاهليون هذا التقليد الفني اتبعه المخضرمون ايضاً ولم تشغلهم حتى الدعوة الاسلامية عن اتيانه والتمتع باتباع نهج الاولين في نظم الشعر فنرى حسان بن ثابت مثلاً شاعر الرسول (ص) غير مدافع لايجد ضيراً ولا حرجاً من تنويع اساليب قصائده حتى وهو المشغول بالدفاع عن الدعوة والذود عن رسول الله (ص) ومهاجمة قريش يصور في احدى قصائده عاذلته وهي تلومه قائلا [٨] :

يا من لعاذلـــــة تلوم سفاهة ولقد عصيت الى الهوى لوامـــــي
بكرت علي بسحرة بعد الكـرى وتقارب مـــن حادث الايـــــام
زعمت بان المرء يكرب يومه عـــدم لمعتكر مـــــن الاصرام

انه التقليد المتوارث الذي شغف به حسان وجيله من الشعراء ، ناهيك عن بقية الشعراء المخضرمين الذين لم يدخروا وسعا في تقليد اسلافهم في طرائق نظمهم واساليبهم واغراضهم .

وبعد فهذا البحث يدرس بشئ من التفصيل ظاهرة من ظواهر الشعر الجاهلي لم تحض بالرعاية والتمحيص الكافيين ونعني ظاهرة العذل وقد قسم الباحث بحثه على بابين اولهما اعتنى بالعذل بوصفه جزءا من بنية القصيدة فأفرد مبحثا خاصا للقصيدة العذلية وهي القصيدة المخصصة باكملها للعذل ثم مبحثا ثانيا للعذل الذي يذيل القصيدة ويختمها ومبحثا ثالثا للعذل الذي يتصدر قصيدة الرثاء ومبحثا رابعا ركز فيه الباحث على النزعة الحوارية التي اتسمت بها قصائد العذل بعامة اما الباب الثاني فقد خصص لاغراض العذل فكان المبحث الاول من هذا الباب مخصصا للعذل على الكبر بمختلف تفصيلاته ، ذم المشيب ، والشكوى من الوهن والشحوب ، ثم عزاء الشعراء وردهم على عواذلهم وعرض امجادهم ومفاخرهم اما المبحث الثاني فكان للعذل على الفقر والثالث لعذل الفرسان وتناول بالتفصيل صراع الفرسان مع عاذلاتهم وهن يلمنهم على ركوب الاهوال والمهالك والتغرب عن الاحبة والاهل والمبحث الرابع تناول العذل على الكرم اما عذل الفتيان فقد احتل موقع المبحث الخامس وكان العذل فيه ينصب على حياة الفتوة اللاهية والتي تدور بالدرجة الاساس حول الخمر والسفر والمجون فضلا عن الاقدام على الموت واخيرا ختم البحث بمبحث العذل على القلة وهو غرض محدود لم يطرق كثيرا ولكنه استحق العناية لطرافته .

ان هذا البحث يحاول الولوج الى عالم الشعر الجاهلي الساحر ليضع اليد على بعض جواهره الخفية ويظهرها للعلن ونرجو ان نكون قد وصلنا الى هذا الغرض بكفاية والله الموفق .

الباب الاول
العاذلة وبنية القصيدة
القصيدة العذلية :

وهي قصيدة يخصصها الشاعر للعاذلـــــة ويستغرق حوار العاذلة فيها ابيات القصيدة كلها حتى جازلنا تسميتها بـ ((القصيدة العذلية)) ونماذجها موجودة عند الفرسان وغيرهم .

ومن ذلك قصيدة حاتم الطائي الشهيرة التي قال فيها [٩]:

وعاذِلَـــةٍ هَبّتْ بلَيْـــلٍ تَلُومُني ... وقـــد غابَ عَيّوقُ الثُّرَيّا، فعَـــرّدا
تَلومُ على إعطائيَ المالَ، ضِلّـةً ... إذا ضَنّ بالمـــــالِ البَخيلُ وصَـرّدا
تقـــولُ: ألا أمْسِكْ عليكَ، فإنّني ... أرى المـــالَ، عند المُمسكينَ، مُعبَّـدا

وعادة ما يكون اللوم ليلاً لانه مع الليل يحل السكون ومع السكون والهجوع تنبري العاذلة لزوجها تلومه وتناكفه ، فهي بطبيعتها شحيحة ، وتلك الصفه تحسب للمراة لا الرجل ، فيجيب الشاعر بما يدحض ادعاء العاذلة ويفند حججها :

ذَريني وحالي، إنّ مالَكِ وافِـــرٌ ... وكـــلّ امرىءٍ جارٍ على ما تَعَـــوّدا

انه ماله وهو الذي يتصرف به على حسب سجيته لا سجيتها ، فان مالها وافر والاجدربها الا تلتفت الى فعله فهذا شانه ، يخاطبها ثانية :

أعـــاذِلَ ! لا آلـــُوكِ إلاّ خَليقَتي ... فـــلا تَجعَلي، فوْقي، لِسانَكِ مِبْـــرَدا
ذَريني يكُنْ مالي لِعِرْضِيَ جُنّـــةً ... يَقي المالُ عِرْضِي، قبل أن يَتَبَـــدّدا

فالعاذلة ترى ان بذل المال يعد اسرافا وتبديدا بينما يرى الشاعر انه جنة لعرضه وان المال يقيه الضرر الذي قد يلحق بعرضه قبل ان يتبدد ، ولاثبات وجهة نظره يسوق لعاذلته الادلة العقلية ويتحداها في قوله :

أريني جَواداً مـــاتَ هَزْلاً، لَعَلّني ... أرَى مـــا تَرَينَ، أوْ بَخيلاً مُخَلَّـــدا

فان لم تستطيعي ان تأتي بمثال واحد يثبت ان جوادا بذل ماله للضيف والعاني والمحروم فمات هزلاً فكفي بعض هذا اللوم .

وإلاّ فكُفّي بَعضَ لومكِ، واجعلي ... إلى رأيِ مَـــن تَلحَينَ، رأيَكِ مُســـنَدا

ثم ينبري الشاعر للفخر بنفسه والاعتزاز ببذله قائلا :

أَلَمْ تَعلَمي أنّي، إذا الضّيفُ نابني ... وعزّ القِرَى، أقري السديف المُسرْهدا
أُسَوَّدُ ساداتِ العَشيرَةِ، عارِفـــاً ... ومـــن دونِ قوْمي، في الشدائد، مِذوَدا

ويستمر الشاعر في فخره حتى نهاية قصيدته التي تشكل لوحة عذلية قائمة بذاتها ومثلما خصص حاتم الطائي قصيدتـــه للعذل فقد فعل شاعر اخر فعله اذ خصص عمر بن كلثوم قصيدة عذلية بث فيها اعتزازه بكرمه وخصاله الشريفه فقال [١٠] :

بَكَـرَتْ تَعْذُلُنـي وَســـط الحَـــتلاَلِ ... سَـــفَهاً بِنْتُ ثُوَيْـرِ بْـــنِ هِـــــلاَلِ
بَكَـرَتْ تَعْذُلُنِـي فِـــــي أَنْ رَأَتْ ... إبِلِـي نَهْباً لِشَـــرْبٍ وَفِضَـــــالِ
لاَ تَلُـــومِينِـي فَإِنِّـــــي مُتْـلِفٌ ... كُـــلَّ مَـــا تَحْوِي يَمِينِـي وَشِمَالِـــي
لَسْـــتُ إِنْ أَطْرَفْتُ مَـالاً فَرِحـــاً ... وَإِذَا أَتْـلَفْتُـــهُ لَسْـــتُ أُبَالِـــــي
يُخْـلِقُ المَـــــالُ فَـلا تَسْتَبِئْسِـــي ... كَـــرِّيَ المُهْـرَ عَلَى الحَـــيِّ الحِـــلاَلِ
وابْتَذَالِي النَّفْسَ فِـي يَـوْمِ الوَغَـــى ... وَطِـرَادِي فَـــوْقَ مُهْـــرِي وَنِزَالِـــي
وَسُـــمُوِّي بِخَمِيـسٍ جَـحْفَـــلٍ ... نَحْـــوَ أَعْدَائِـي بِحَلِّـــي وَارْتِحَالِـــي

ولعروة بن الورد اميرالصعاليك قصيدة عذلية كاملة خصصها لحوار يجري بينه وبين ابنة المنذر التي هي على الارجح زوجه ، وموضوع هذه القصيدة لا يخرج عن موضوعات عذليات الفرسان وهو الاقدام والغارة ومفارقة الاهل والاحبة يقول [١١] :

أقِلِّـي عَلَيَّ اللَّوْمَ يا ابْنَـــةَ مُنْذِرِ ... ونـــامِي ، فإنْ لم تَشْتَهِي النَّومَ فاسْهَرِي
ذَريـنـي ونَفسي أُمَّ حَسَّانَ ، إنـنـي ... بـها قبـل أن لا أمـــــلك البيع مشتري
أحـاديـثُ تَبْقَى والفَتى غيرُ خالـــدٍ ... إذا هـــــــو أمسى هامة فوق صير
تُـجَاوِبُ أَحْجَـــارَ الكِنَاسِ وتَشْتَكِي ... إلـى كـــلِّ معروفٍ تـــــراهُ ومُنْكَرِ

ثم يوجه خطاب للعاذلة طالبا منها ان تكف عنه وتدعه لشأنه:

ذَريـنـي أُطَوِّفْ فِـــي البلادِ لعلَّنِي ... أُخَلِّيكِ أو أغْنِيكِ عـــن سُـــوءِ مَحْضَرِ

ثم يعقبها بفلسفه الفرسان المتداولة في الموت وحتميته وعدم الخوف من قرب الاجل :

فـإن فـاز سـهم للمنية لم أكـــن ... جَـزُوعـاً، وهَـلْ عـــن ذاكِ من مُتَأَخَّرِ
وإن فـاز سهمي كفكم عن مقاعـد ... لـــكم خـلف أدبـــار البيوت ومنظر

ثم تجيبه مقرعة لتحثه على تر ك الغارة والخروج بصعاليكه طلبا للغنيمة :

تـقـــول لك الويلات هل أنت تارك ... ضَـبُـوءَاً بِـرَجْـلٍ تـــــارة ً وبِمنسرِ
ومـستثبت في مالك العـام إننـــي ... أرَاكَ عَـلَـى أقْتَـــــادِ صَرْماءَ مُـــذْكِرِ

فَجُوعٍ بها لِلصَّالِحِينَ مَزِلَّـــــة مخوفٍ رداهـــــا أن تصيبك فاحـــذر

فامراته مشفقه عليه تخاف ان يهلك في احدى غاراته وخاصه ان الموت الذي يصيب اهل المعروف من سادات العرب ورجالاتهم يكون اشد وقعا على ذويهم واحبتهم ممن سواهم من السوقه والدهماء ، ويجيبها قائلا :

أبى الخفض من يغشاك من ذي قرابة ومـــن كـــل سوداء المعاصم تعتري

ومستهنيء زيـد أبـــوه فلا أرى لـــه مدفعـــاً فاقني حياءك واصبري

يقول : ابى هذا الذي تريدين من خفض العيش والدعة من يغشاك ، اي يطرقك من ذي قرابة ياتونني فيسالونني ، وابى ايضا من يعتريك من الفقراء ، فان قعدت عن الطلب لم يكن عندك ما تقرين به ضيفا ولا تصلين به قرابه . ومن كل سوداء المعاصم : يريد انها جهدت من الجدب والجهد والهزال فلم تلبس قفازين على يديها ولم تصن نفسها ويابى ايضا ان اقرك على ماتريدين المستهنىء : اي المستعطي الذي يدعو للمحسن اليه وذوي القربى ولذا فاخفظي عذلك وامسكي عليك ثم يستطرد عروة ليصف حياة الصعلوك وفلسفته في الصعلكة في لوحة نادرة :

لَحَى الله صَعْلُوكاً إذَا جَـنَّ لَيلُـــهُ
مضى في المشاش آلفاً كـــل مجـــزر
يَعُدُّ الغِنى مِـــن نَفسِهِ كُلَّ لَيلَـــةٍ
أَصابَ قِراهـــا مِـــن صَديقٍ مُيَسَّرِ
ينـامُ عِشَـاءً ثم يُصْبِحُ قاعـــــداً
يَحُت الحَصَى عـــن جنْبِـــه المُتَعَفِّرِ
قَليـــلُ اِلتِماسِ الزادِ إلّا لِنَفسِـــهِ
إذا هُـــوَ أمسى كَالعَرِيشِ المُـــجَوَّرِ
يُعَينُ نـساءَ الحَيِّ ما يَسْتَعِنَّـــهُ
ويمســـي طليحاً كالبعير المســـحر
ولكن صعلوكاً صفيحة وجهـــه
كَضَوْءِ شِـــهَابِ القابِسِ المُتَـــنَوِّرِ
مطـــلاً على أعدائه يزجرونـــه
بساحتهم زجـــر المنيح المشـــهر
وإنْ بَعِدُوا لا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَـــهُ
تَشَـــوُّفَ أهـــلِ الغائبِ المُتَنَظَّرِ
فذلكَ إنْ يَلْقَ المنيّـــةَ يلْقَهـــا
حَمِيداً، وإنْ يَسْتَغْنِ يومـــاً فأجْـــدِرِ
أيهلك معتم وزيـد ولم أقـــم
على ندب يومـــاً ولـــي نفس مخطر
ستفزع بعد اليأس مـــن لا يخافنا
كواســـع في أخرى الســـوام المنفر
يطاعن عنها أول القـــوم بالقنا
وبيض خفاف ذات لـــون مشـــهر
فَيَومـــاً عَلى نَجدٍ وَغاراتِ أَهلِها
وَيَومـــاً بِأَرضٍ ذاتِ شَـــثٍّ وَعَرعَرِ
يناقلن بالشمط الكرام أولي القـــوى
نِقَابَ الحِجَازِ فـــي السَّـــرِيح المُسَيَّرِ
يُرِيحُ عليَّ اللَّيلُ أضيافَ ماجـــدٍ كريـــــم، ومالِي سَارحاً مـــالُ مُقْتِرِ

العاذلة في خاتمة القصيدة :

على الرغم من ان اكثر العذليات تكون في صدور القصائد الا ان البعض منها ياتي في نهاية القصيدة كقفل لها، ان هذا المنحى الذي اتبعه البعض من الشعراء يثبت بالدليل البنيوي ترابط القصيدة الجاهلية وقصائد المخضرمين واتساقها فالبيت الاخير الذي يختم الشاعر به قصيدته هو خلاصة افكاره التي بثها في قصيدته بدءاً بمقدمته العذلية مروراً بالسياق الموضوعي والبنائي الذي ضمنه مفاخرة والحجج التي ساقها رداً على عاذلته . (ان ظاهرة ختم القصيدة ببيت عذلي او اكثر تعد نزعة قليلة نادرة في شعر الجاهليين والمخضرمين وتدخل في سياق التنوع في خواتيم القصائد التي لا تقبل الحصر ولا تخضع لاية صورة من صور التصنيف لانها كلها اساليب فردية تختلف باختلاف الشعراء والموضوعات ، وليس من بينها ما يصح ان يكون ظاهرة فنية عامة)[١٢]

ومن ذلك قصيدة الطفيل الغنوي التي بدأها بالغزل بامراة جافية تصغي الى الوشاة وقيلهم حتى راى منها ما يكره من الاعراض والملامة والعذل فيقول[١٣] :

إن تمسِ قـــد سمعت قيل الوشاة بنـا وكـــل ما نطـــق الواشون تضليـــل

فمـــــا تجود بموعـــــود فتنجزه أم لا فيأسٌ وإعـــــراض وتجميـــــــلُ
فـــأن قصرك قومي ان سألتهـــم والمـــــرء مستنبأ عنـــه ومســـؤول

ويستمر في الفخر بنفسه واقراره حقيقة انه لا يستحق العذل لما يتمتع به من مزايا حتى يختم بابيات ثلاثة هي خلاصة تجربته مع النساء ويقر حقيقة انهن ومع كل مزايا الرجل التي لا تخفى عليهن ملومات يخذلن الرجل عن الفعال الكريمة يقول :

إن النِّساءَ كَأَشجَارٍ نَبتنَ معَـــــــاً نهـــا المرارُ وبعضُ المـــرَّ مأكـــولُ
إن النِّساء متى يَنهَيْن عـــــن خُلُقٍ فإنَّـــهُ واجِبٌ لا بُـــــدَّ مَفعُـــــولُ
لا يَنْتَهِيْنَ لِرُشدٍ إن مُنِيْنَ لـــــــه وهُـــــنَّ بعـدُ مَلُومَاتٌ مَخَاذِيـــــــلُ

ويشبه هذا المنحى الاسلوبي – ختم القصائد بالعذل – منحى الاندلسيين في ختم موشحاتهم بالقفل الاخير المسمى بالخرجة الذي هو ملخص فلسفة الوشاح في موضوع موشحته والمعبر المكثف عن المراد من الموشح . اذ ان فكـرة الشاعر ((تقوم على اساس تطويع الخاتمة لما يتناسب مع موضوع الفصيدة وكان الشاعر يهدف منها ترك اثر واضح في سامعيه قبل ان ينهي قصيدته تثبيتاً لما رآه فيها من قضايا وافكار وهذا هو المبررالواضح لاختلاف نوعية الخواتيم باختلاف موضوعات القصائد))[١٤].

العاذلة في مقدمة قصائد الرثاء :

يعد العذل في مقدمة القصائد مطرداً ومتداولاً وهو الاساس في هذه الظاهرة ولكن تصدر العاذلة مقدمات بعض قصائد الرثاء يعد استثناءاً وان كان منطقياً لما ذهب اليه يوسف خليف عندما وزع القصيدة على قسمين ، قسم ذاتي وقسم غيري ورأى ان المقدمات في القسم الذاتي تحتوي على ثلاثة دوافع هي المرأة والخمر والفروسية وهي نفسها متع الحياة الجاهلية التي حل الجاهليون مشكلة الفراغ في حياتهم بها ، وهي مشكلة لم يجدوا حلاً لها الا عن طريق هذه المتع التي لم يجدوا مكاناً للتعبير عنها في زحمة الالتزامات القبلية الا في مقدمات القصائد ولذا قال : ((ومن هنا كان طبيعياً جداً ان تخلو قصائد الرثاء من هذه المقدمات لان مقامها ليس مقام لهواو متعة ولان الموقف الذي يتحدث عنه الشاعر قد وضع حلاً نهائياً لمشكلة الفراغ)) ونقول انه استثناء منطقي ولا سيما في القصائد الرثائية التي تخصص للفرسان والسادة بحيث ان الشاعر على ما يبدو كان يغالي في حزنه وبعده عن الحياة ، مما يجعل العاذلة تتصدى له مطالبة بالتوقف عن الحزن والالتفات الى مواجهة مشاغل الحياة . ومن ذلك نموذج لدريد بن الصمة الذي حالف احد اصدقائه و وتواثقا ان هلك احدهما ان يرثيه الباقي بعده ، وان قتل يطلب بثأره فقتل هذا الصديق فرثاه دريد بقصيدة افتتحها بقوله :[١٥].

أَلا بَكَرتْ تَلُـــومُ بِغَيرِ قَـــــدْر فَقَـــدْ أَحْفَيتِني ودَخَلْتِ ســـــــتْري

النزعة الحوارية في القصيدة العذلية :

ان النزعة الحوارية تعد اهم المزايا الاسلوبية للوحة اللوم ، فطبيعة اللوم ونزعة التجريد والتجسيد التي يعتمدها الشاعر في تعامله مع الصوت الاخر يستوجبان اعتماد الحوار اطاراً اسلوبياً وفنيا وقد مر بنا كثيرا في صدور القصائد الجاهلية ذاك الحوار المقتضب بين الشاعر واثنين من رفاقه ، وقد قيلت فيه اراء عدة ، فمنهم من عـده خطاباً موجها من الشاعر الى نفسه ونفس اخرى جردها من ذاته ، واخرين قالوا انهما - اي المخاطبين - الشاعر ورفيق سفره و منهم من ـــ ذهب الى تأويل ابعد فقال ان الخطاب موجه الى نفسه وناقته ، وفي مجمل الاحوال فأن خطاب الخليلين او الصاحبين اعتمد الحوار والسرد القصصي .

من ذلك نستنتج ان تجريد النفس من ذات الشاعر لا بد من ان يقود الى هذه النزعة الحوارية لان الغرض من القول اصلاً هو التعبير عن الراي والرأي الاخر أي ايضاح اراء الشاعر في بعض الامور الحياتية او التعبير عن فلسفة الشاعر في امور الكون وجدلية الحياة والموت وبنية اللوحة العذلية تتشكل من ثلاثة محاور اسلوبية :

اولهما / محور الشكوى الذي يتضمن الشكوى من العذل وشدة وطأة اللوم على نفس الشاعر.

وثانيهما / الحوار العذلي بين الشاعر وعاذلته باسلوب قالت وقلت وفيها يبين الشاعر فلسفته في موضوع العذل

وثالثهما / محور التخلص الذي يتضمن عدم جدوى العذل ثم الد خول في الفخر ومن نماذج هذه البنية قصيدة عمر بن سعد الغنوي اذ يقول في المحور الاول الذي اسميناه الشكوى :[١٦]

لقـــد أنصبتني أم عمروٍ تلومنـــي ومـــا لـــوم مثلي باطلاً بجميـــــل

ثم ينتقل الى سياق الحوار العذلي فيقول :

تقول ألا يـــا استبق نفسك لا تكن تســـاق لغبراء المقـام دحـــول
كملقى عظام أو كمهلك ســـالم ولســـت لميت هالك بوصيـــل
أراك امرء ترمي بنفسك عامـــدا مرامي تغتـال الرجـــال بغـــول
ومن لا يزل يرجى بغيب إيابـــه يجـــوب ويغشى هـــول كـــل سبيل
على قلت يوشك ردى أن يصيبـــه إلى غيـــر أدنى موضـــع لمقيـــل

ثم يجيبها الشاعر في سياق الحوار العذلي ذاته :

ألـــم تعلمي الا يراخي منيتـــي قعـــودي ولا يدنى الوفـــاة رحيلي
مـــع القدر الموقوف حتى يصيبني حمامي لـــو أن النفس غير عجـــول

ويستمر في هذا السياق مبيناً لعاذلته عدم جدوى عذلها وعدم استجابته لالحاحها يقول :

فإنـك والمـوت الذي ترهبينـــــه على ومـــا عذالـــــة بغفـــــول
كداعي هديـــل لا يجاب إذا دعـــا ولا هـــــو يســـلو عن دعاء هديـــل

ثم ينتقل الى المحور الاسلوبي الثالث وهو التخلص والدخول الى الفخر سارداً مناقبه وفعاله الكريمة يقول :

وذي ندب دامي الأظل قسـمته محافظـــــة بيني وبين زميلـــــي
وزاد رفعت الكف عنـه عفافـــة لأوثـــر في زادي علـــي أكيلـــي
وشخص درأت الشمس عنه براحتـي لأنظـــر قبل الليل أيـــن نزولـــي

ثـم يستمر في فخره حتى نهاية القصيدة . وعليـــاء بن ارقـم يتبع في عذليته البنية الفنية نفسها يبدأ بالشكوى ((وذكر تماضر امراته ، وكانت فارقته عاتبة عليه في استهلاكه المال وتعريضه النفس للمعاطب ، فلحقت بقومها ، فاخذ يتلهف عليها ويتحسر في اثرها واثر اولاده منها)) [١٧] . يقول في الجزء الاول من العذلية: [١٨]

حلـت تماضر غربـــة فاحتلت فلـجا وأهـلك باللـــوى فالحلـت
وكأنما في العيـــن حب قرنفـــل أو ســـنبلا كحلت بـــه فانهلـت

ثم ينتقل الى الجزء الثاني (الحوار العذلي) :

ألـــم تعلمي الا يراخي منيتـــي قعـــودي ولا يدنى الوفـــاة رحيلي
زعمـــت تماضر أنني امـــا أمت يســـدد ابينوها الأصاغـــر خلتـي
تربت يـــداك وهل رأيت لقومـــه مثلـــي على يســـري وحين تعلتـــي
يومـــا إذا مـــا النائبات طرقننا أكفـــي بمعضلة وإن هـــي جلـت

ثم يستطرد في سياق الجزء الثالث من القصيدة وهو العرض او الغرض الاساسي وهو هنا الفخر بنفسه وفعاله يقول :

ومنـــاخ نازلـــة كفيت وفارس نهلـــت قناتي مـــن مطـــاه وعلت
وإذا العذارى بالدخـــان تقنعت واســـتعجلت نصب القـــدور فملت
درت بأرزاق العيـــال مغالـــق بيـــدي مـــن قمع العشار الجلـــة
ولقـــد رأبت ثأي العشيرة بينـــها وكفيـــت جانبهـــا اللتيا والتـــي
وصفحت عـــن ذي جهلها ورفدتـــه نصحـــي ولـــم تصب العشيرة زلتـــي
وكفيت مـــولاي الأحم جريرتـــي وحبســـت سـائمتي على ذي الخلـــة

الباب الثاني
أغراض العــذل
((العذل على الكبر))
ذم المشيب :

كان العذل على الشيب والكبر اهم المواضيع التي دار الحديث عنها بين الشاعر وعاذلته ، لقد القى الموت بظلاله الثقيلة على حياة الناس والشعراء منهم بخاصة فعبر هذا الخوف عن نفسه من خلال طرق تعبيرية مختلفة لعل حوار العاذلة اهمها في الشعر الجاهلي ، ولان الانسان في خوف دائم من الموت فقد كرهه وانكره وان اقر بحتميته والموت بنظر الشاعر له مقدمات توطئ له وتنذر بقربه ولعل الشيب وما يتبعه من حنوالظهر وانطفاء العزيمة اهم العلامات التي تدل على قرب المنية ، وقد اكثر الشعراء في قصائدهم من ذم الشيب والشكوى من الوهن والشحوب اللذين يعتريان الانسان في شيخوخته فالشعراء نزاعون الى الشباب مكثرون من مدحه وتذكر ايامه ولياليه غير مرحبين بالشيب والهرم ، منهم المزرد الذي يتحسر على شباب ولى [١٩]

فـــؤادي حتى طار غـــــي شبيبتي وحتى علا وخط من الشيب شا مل
يقَنِّئُهُ مـــــــاءُ اليُرَنَّاءِ، تحتَـــــهُ شَـــــكِيرٌ كأَطْرَافِ الثَّغَامَـــــةِ ناصِلُ
فلا مرحباً بالشَّيب مـــــن وَفْدِ زَائرٍ متَى يَـــأْتِ لا تُحْجَبْ عليـــــه المَدَاخِلُ
وسَـــــقْياً لِرَيْعَانِ الشَّبابِ فإنـــــهُ أَخُـــو ثِقَـــةٍ في الدَّهْرِ إِذْ أَنا جاهِـــلُ
أَلْهُـــو بسَلْمَى، وهْيَ لَـــــذٌّ حَديثُها لِطالِبَهـــــا ، مســـؤُولُ خَيْرٍ فبَـــاذِل

ويقترن الشباب عند الشعراء باللهو والنشاط والمرح ولهذا فأن الشاعر دائم التحسر عليه ولكن هيهات فما ذهب لا يعود والموت قادم لا محال ، يقول سلامة بن جندل السعدي متحسرا على الشباب : [٢٠]

اودى الشَّـــــبابُ حَمِـــيداً ذُو التَّعاجِيبِ أَوْدَى وذلكَ شَـــــأْوٌ غَيْرُ مَطْلُـــوب
وَلَّى حَثِيثاً وهـــذا الشَّيْبُ يَطْلُبُـــهُ لـــو كان يُدْرِكُـــــهُ رَكْضُ اليَعَاقِيبِ

والمرقش الاكبـر يتسائل عـن جدوى الخضاب ما دام لن يعيد الى شعره لونه الغابرالذي ولى وحل محله البياض [٢١] .

هـــل يَرْجِعَنْ لِي لِمَّتِي إِنْ خَضَبْتُهَا إِلـــى عَهْدِها قَبلَ المَشِـــيبِ خِضَابُهَـــا
رَأَتْ أُقْحُـــوَانَ الشَّيْبِ فَوْقَ خَطِيطَـــةٍ إِذَا مُطِـــرَتْ لم يَسْـتَكِنَّ صُؤَابُهَـــا
فإِن يُظْعِـــنِ الشَّيْبُ الشَّبابَ فَقَدْ تُـــرَى بـــهِ لِمَّتي لم يُـــرْمَ عنها غُرَابُهَـــا

ومعاوية بن مالك (معود الحكماء) يشرك زوجه سلمى في شكواه من الكبر وغلبة الشيب فهما قد كبرا معا بعدما كانا مرغوبين مطلوبين في شبابهما فقد كان يصطاد النساء الكواعب مثلما كانت هي ترمي قلوب الرجال بسهام لحضها يقول [٢٢]:

أَجَـــدَّ القَلبُ مِـــن سَلمى اِجتِنابا وَأَقصَرَ بَعدَ مـــا شـابَت وَشـــابا
وَشـابَ لِداتُـــهُ وَعَدَلنَ عَنـــهُ كَمـــا أَنضَيتَ مِـــن لُبسٍ ثِيابـــا
فَإِن تَكُ نَبلُهـــا طاشَت وَنَبلـــي فَقَـــد نَرمي بِهـــا حِقَبـــاً صِيابـــا
فَتَصطادُ الرِجـــالَ إِذا رَمَتهُـــم وَأَصطـادُ المُخَبَّـــأَةَ الكَعابـــا
فَإِن تَكُ لا تَصـــيدُ اليَـــومَ شَيئاً وَآبَ قَنيصُها سَلِمـــاً وَخابـــا
فَإِنَّ لَهـــا مَنـازِلَ خاوِيـــاتٍ عَلى نَمـــلى وَقَفتُ بِهـــا الرِكابـا

وهذا مالك بن حريم الهمداني يبدي جزعه من الشيب بعد الشباب بقوله [٢٣]:

جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعا وفـــد فات ربعي الشباب فودعـــا
ولاح بياض في ســـواد كأنه صوار بجـــو كان جدبا فامرعـــا

ثم يصور مالك بن حريم نفور اخوانه منه بعدما رأوا شيبه واسراعهم الى كل جليس اسود الشعر كثيفه يقول :

فأقبل اخـــوان الصفاء فأوضعـــوا الى كـــل احوى في المقامة افرعـــا

الشكوى من الوهن والشحوب :

ومثلما ذم الشعراء الشيب ذموا الوهن والشحوب اللذين يتبعان الشيب وعذلتهم العواذل عليهما فابنة العمري تلوم متمم بن نويرة على شحوبه وتغيره بعد ان كان منذ قريب ناعم البال افرع فيجيبها ان حزنه على فقد اخيه مالك هو ما اذاه وبلغ منه كل مبلغ يقول [٢٤]

تقـــولُ ابنةُ العَمْرِيِّ مَا لَكَ بعدَمـــا أراكَ حَدِيثًـــا نَاعِـمَ البـــالِ أَفْرَعَـــا
فقلتُ لها : طـــولُ الأَسَـــى إِذْ سَأَلْتِنِي وَلَوْعَـــةُ حُزْنٍ تَتْرُكُ الوَجْهَ أَسْفَعَـــا
وَفَقْدُ بَنِـــي أُمٍّ تَدَاعَوا فلمْ أَكُـــنْ خِلافَهُـــمُ أَنْ أَسْتَكِينَ وَأَضْرَعَـــا
ولكنَّني أَمْضِـــي على ذاك مُقْدِمـــًا إذا بعضُ مَـــن يَلْقَى الحروبَ تَكَعْكَعَـــا

ويمضي متمم في تعداد المصائب التي المت به ويعدد اصحابه الذين فقدهم تباعا وتركوا في نفسه حزناً وغصة ثم يحلف عاذلته بالله ان تدعه وتقصر عن ملاحاته ويتوسل اليها ان لاتسمعه المزيد من العذل لان عذلها ينكأ جراحه ويقرحها يقول :

فَعِيـــدَكِ أَلاَّ تُسْمِعِينِي مَلامَـــةً ولا تَنْكَئِي قَـــرْحَ الفُـــؤَادِ فَيَيْجَعَـــا
فَقَصْرَكِ إِنِّي قـــدْ شَهِدْتُ فَلَمْ أَجِـــدْ بِكَفِّيَ عَنْهُـــمْ لِلْمَنِيَّـــةِ مَدْفَعَـــا

ومثل زوج متمم بن نويرة شكت زوج ابي قيس بن الاسلت الانصاري مما رأت من شحوبه وتغيره فقد رجع من احدى غزواته ليلاً فدق باب داره على امراته وهي كبشة بنت ضمرة من بني عمرو بن عوف ، ففتحت له ، فأهوى اليها فدفعته وانكرته ، فقال : انا ابو قيس ، فقالت : والله ما عرفتك حتى تكلمت . فقال هذه القصيدة يسجل المعنى [٢٥]:

قالتْ، ولـــم تَقْصِدْ لِقِيلِ الخَنَـــا مَـــهْلاً فقَـــدْ أَبْلَغْتَ إِسْمَاعِـــي
أَنْكَرْتِـــهِ: حِينَ تَوَسَّـــمْتهِ والحَرْبُ غُـــولٌ ذَاتُ أَوْجَـــاعِ

وحدثها بعد ذلك بما تؤثر الحرب في فرسانها ، وما يذوقون من مرارة . وانه انما خاض غمراتها وفاء بما التزمه:

مَـــنْ يَذُقِ الحَرْبَ يَجِدْ طَعْمَهَـــا مُـــرًّا، وتَحْسِـــبْهُ بِجَعْجَـــاعِ
قـــد حَصَّتِ البَيْضَةُ رَأسِـــي فَمَا أَطْعَـــمُ غُمْضاً غَيْرِ تَهْجَـــاعِ
أَسْعَى على جُـــلِّ بَنِي مَـــالِكٍ كـــلُّ امْرِىءٍ في شَـــأْنِهِ ســـاعِ

ثم يدعوها لتسأل الخيل عنه وعن فعله :

هَـــلاَّ ســـأَلْتِ الخَيْلَ إِذْ قَلَّصَتْ مـــا كانَ إِبْطـــائي وإِسْرَاعِـــي
هَـــلْ أَبْذُلُ المالَ علي حُبِّـــهِ فِيـــهِمْ، وآتِـــي دَعْوَةَ الدَّاعِـــي

اما الشحوب الذي يعتري ابا ذويب الهذلي فهو شحوب الفقد ووداع الاحبة فقد اودى الزمان ببنيه واغتالتهم يد المنية ولهذا فانه دائم الالم عليهم لا يرقد ولا يغمض له جفن ، يقول [٢٦] :

قالت أميمة: مـــال جسمك شاحبـــا منـــذ ابتذلت و مثـل مالك ينفـــع؟
ام مـــا لجنبك لا يلائـــم مضجعا الا اقض عليـــك ذاك المضجـــع
فأجبـــتها امـــا لجـسمي أنـــه أودى بني مـــن البلاد و فودعـــوا
اودى بني و أعقـبوني غصـــة بعد الرقـــاد و عبـــرة لا تقـــلع
فغبرت بعدهـــم بعيـــش ناصب و أخـــال أنـــي لاحـــق مستتبع
و لقـــد حرصت بان ادافع عنـــهم فأذا المـــنية أقبـــلت لا تدفـــع
واذا المنيـــة انشبت اظفارهـــا الفيت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

والحطيئة يخصص لوحة كاملة يعرض فيها ما يؤول اليه الانسان عند الكبر ما يحيق به من الاهمال والازدراء فالشيخوخة المقبلة تأتي بكل مذموم مثلما الشباب المدبر يؤخذ معه كل محمود يقول [٢٧] .

إذا ذهبَ الشـــــبابُ فبانَ منـــــهُ فليسَ لمـــــا مضي منـــــه لقـــــاءُ
يصبُّ إلـــــى الحيـــــاةِ ويشتهيها وفـــي طـــــولِ الحياةِ لـــــه عناءُ
فمنـــــها أنْ يقادَ بـــــهِ بعيرٌ ذلـــولٌ حيـــــن تهترشُ الضـــــراءُ
ومنـــــها أن ينوء على يديـــــه لينهض فـــي تراقيـــــه انحنـــــاءُ
ويأخـــذه الهداجُ إذا هـــــداهُ وليـــدُ الحـــــيِّ في يـــــده الرداءُ
وينظرُ حولـــــه فيرى بنيـــهِ حـــواءً حـــــالَ دونـــــهمُ حـــواءُ
ويحلـــفُ حلفـــةً لبني أبيـــــه لأنتـــم معطشـــونَ وهـــمْ رواءُ
ويأمـــــر بالركابِ فلا تعشـــــى إذا أمســـى وإن قـــربَ العشـــاءُ
تقولُ لـــــه الظعينةُ أغـــنِ عنِّـــي بعيـــــركَ حينَ ليس بـــــهِ غنـــاءُ

ويجيب غريقه بن مسافع العبسي عاذلته على سؤالها عن سبب شحوبه ويرد ذلك الى المنية التي خطفت اخوته وتتابع الاحداث الجسم عليه يقول [٢٨]:

تقول سليـــمى : ما لجسمك شاحبـــاً كـأنـــك يحميك الشَّـــرابَ طبيـــبُ
فقلت ولـــم أَعْي الجـوابَ ولـم أُلِحْ وللـــدهر في صُـــمِّ الســـلام نصيبُ
تتابُعُ أحـــداثٍ تخرَّ مْن إخوتـــي وشـــيَّبن رأســـي ، والخُطوبُ تُشيبُ
لعمـــري لئن كانتْ أصابتْ مصيبةٌ أخـــي والمنايا للرجـــال شَـــعوبُ

عزاء الشعراء :

يقول سلامة بن جندل وهو يشكو هجر عاذلته بعد ان اشتعل راسه شيباً واحدب ظهره [٢٩] :

اني رايت ابنة الســـعدي حين رات شـــيبي ، ومـــا خل من جسمي وتنحيبي
تقـــول حين رأت راســـي ولمته شـــمطاء بعد بهيم اللـــون غربيب

ويتبع ذلك بحسرة على الشباب الذي ولى الى غير رجعة وولت معه حفاوة الحسناوات وحدب الغواني :

وللشباب إذا دامـــت بشاشتـــه ود القلـــوب من البيض الرعـــابيب

ولانه لا يستطيع امروء وقف عجلة السنين فانه يحاول التعويض بمزايا اخرى لا دخل للعمر بها ، بل هي من مكارم الاخلاق التي بمجملها تضفي هالة على الرجل وتضعه في مصاف السادة الشرفاء ومنها قرى الاضياف اوالاقدام في سوح الوغى ، وسلامة بن جندل يخبر عاذلته انه وان علا الشيب رأسه فانه يجود بماله حين يشح البخيل يقول :

إنا إذا غربت شـــمس أو ارتـــفعت وفي مباركهـــا بـــزل المصاعيـــب
قـــد يسعد الجار والضيف الغريب بنا والســـائلون، ونغلي ميـــسر النيـــب

ثم يردف قوله هذا بادعاء اخر يحاول الشاعر فيه اغاظة عاذلته اذ يزعم ان النساء الجميلات مازلن بهن حاجة اليه ورغبة فيه ، فهو وان شاب رأسه فحل غالب لا تمتنع الجواري عن مواصلته يقول :

وعندنا قينـــــة بيضاء ناعمـــــة مثل المـــهاة مـــن الحور الخراعيـــب
تـــجري السـواك على غر مفلجـــة لـــم يغذها دنـــس تحت الجلابيـــب

ويعوض عبدالله بن جنح النكري في سياق عذل الغواني وجفاؤهن عن كبر سنه بالفخر بنفسه وان ما علاه من الشيب ليس من الكبر او التقدم بالسن وانما من المعارك والوقائع التي اكثر من خوضها وهو يرى ان المجد والسؤدد لا تقترنان بالشباب بل بالفعال الكريمة التي تزين المرء حتى وان علا الشيب مفرقه يقول [٣٠] :

زعـــمَ الغَوانِي إنْ أرَدْنَ صريمَتـــي أنْ قـــدْ كبِرْتُ وأدبَـــرَتْ حاجَاتـــي
وضحِـــكْنَ مِنِّـــي ساعـــةً وسألنَني: مُـــذْ كمْ كذَا ســـنةً أخذْتُ قَناتِـــي؟!
ما شِبْتُ مِـــنْ كبرٍ ولكِنّي امـــرؤٌ أغشَى الحـــروبَ ومَـــا تشِيبُ لِدَاتـــي

ثم انبرى يفخر بنفسه وقومه :

أحْمِـــي أُناسِي أنْ يُبَاحَ حريمُهُـــمْ وهـــمُ كـــذاكَ إذَا عُنِيتُ حُماتـــي
مِـــنْ معشرٍ يَأبَى الهوانَ أخوهُـــمُ شُـــمُّ الأنـــوفِ جَحَاجِحٌ ســـاداتِ
عَـــزُّوا وعَزَّ بِعِزِّهِـــمْ مِنْ جاوَروا وهُـــمُ الذُرَى وغَلاصِـــمُ الهامـــاتِ
إنْ يُطلَبُوا بجريـــــرَةٍ يَنأَوْنَـــها أوْ يُطلبُـــوا لا يُـــدرَكُوا بِتِـــراتِ

ان الشعراء يردون على عواذلهم دوما بما يرونه يعوض تتعليهم كبر سنهم فقد عاشوا حياة حافلة بكل ما من شانه رفعتهم وعلو شانهم فقد قضوا شبابا صاخبا فيه من الوان المكارم ما يفخر به الشاعر ويرد به على لائميه من مثل رد عوف بن عطية التيمي على فطيمة التي سخرت منه حين علا الشيب راسه :[٣١]

ســـخرت فطيمة إذ رأتني عاريـــا جـــرزي إذا لـــم يخفه ما أرتـــدي
بصرت بفتيان كـــأن بضيعـــهم جـــرذان رابيـــة خلـــت لـــم تصطد
إما تريـــني قـد كبرت وشـــفني وجـــع يـــقرب في المجالـس عـــودي

ومع انه فد كبر ودنى اجله غير اسف على حياته التي قضاها ينحر الجزور في ايام الجدب ليطعم منـــها الغني والفقير على السواء يقول :

فلقد زجرت القدح إذ هبت صبا خرقاء تقذف بالخطار المسند
في الزاهقات وفي الحمول وفي التي أبقت سناما كالغري المجسد
فإذا قمرت اللحم لم أنظر به نيئا كما هو ماوءه شرق الغد
وجرى بأعراض البيوت وأهلها وإلى المقامة ذي الغنى والمجتدي
شرقا به ماء السديف فأن يكن لا شحم فيه فما استطعنا نحشد
وإذا هوازن جمعوا فتناشدوا جنباتهم ألفيتني لم أنشد

اما عمرو بن معد يكرب فقد وجد في فروسيته واقدامه عزاءاً للشيب الذي تسرب الى شعره ولهذا فانه يسرد بطولاته رداً على امامة التي استهجنت شيبه يقول [٣٢] :

وقد عجبت أمامة أن رأتني تفرع لمتي شيب فظيع
وقد أغدو يدافعني سبوح شديد أسره نعم سريع

ان الشعراء طالما وجدوا ما يردون به على عواذلهم فالشيب لا يعيب صاحبه ولاهو مانع له عن المكارم والفعال الشريفة يقول عروة [٣٣] :

ويدعُونَني كهلاً، وقد عشتُ حِقبةً وهنّ ، عن الأزواجِ نحوي، نوازع
كأني حصان مال عنه جلاله أغرُّ، كريمٌ، حوله العُوذُ، راتع

ثم يختم تبريراً لشيبه الذي لا يدل على كبر ولكنه بفعل الوقائع والحروب التي خاضها :

فما شاب رأسي من سنن تتابعت طوالٍ، ولكنْ شيّبَته الوقائع

وهذا المعنى مطرد عند الشعراء فاعمارهم لم تذهب سدى ولم تضيع في ما يانف العربي منه ، بل هو عمر مبارك وسنين حافلة بالمكرمات ، وعلى ذلك فان الشاعر يطلب من عاذلته ان تكف عن لومه على شيبه وانحناء ظهره مثلما فعل دريد بن الصمة يوم خاطب عاذلته : [٣٤]

أعاذل إنما أفنى شبابي ركوبي في الصريخ إلى المنادي
مع الفتيان حتى كل جسمي وأقرح عاتقي حمل النجاد

وسحيم عبد بن الحسحاس يرد على عاذلته التي رات منه ما تكره من الشيب والوهن يقول [٣٥] :

فاما ترني علاني المشي بـ وانصرف اللهو عني انصرافا
وبان الشباب لطياته وقد كنت رديت منه عطافا

وهو لا يابه ولايحاول ان يعكس عدم اكتراثه بذهاب الشباب لانه استعاض عنه بقرى الاضياف يقول :

فقد اعقر النادي ذا التلي ل حتى احاول منها سدافا
بمثنى الايادي لمن يعتفي وارفع ناري اذا مااستضافا

والمرار بن منقذ تعجب من خولة اذ تنكره بعد الكبر بعد كل بلائه في شبابه وبعد مأثره في مشيبه يقول [٣٦] :

وكساه الدهر سبا ناصعا وتحنى الظهر منه فأطر
إن تري شيبا فإني ماجد ذو بلاء حسن غير غمر
ما أنا اليوم على شيء مضي يا بنة القوم تولى بحسر
قد لبست الدهر من أفنانه كل فن حسن منه حبر

وقد تحدث عبد الله بن سلمة الغامدي عن صاحبته وعلو شانها وتفردها بالحسن والطيب ، ومع ذلك فانها هزأت بمشيبه ، فاحتج للكبر معتزا به ، وفخر بشجاعته قال [٣٧] :

ألا صرمتْ حبائلنا جنوبُ ففرعنا ومالَ بها قضيبُ
ولمْ أرَ مثلَ بنتِ أبي وفاءٍ غداة براقِ ثجرَ ولا أحوبُ
على انها هزئت وقالت هنون اجن ؟ منشأ ذا قريب

وهنا يحتج عبد الله بن سلمة بان الشيب لا يقتصر عليه بل ان له اشباه ونظائر فهو لم يشب وحده ، يقول :

فإنْ أكبرْ فإنِّي في لداتي وعصرُ جنوبَ مقتبلٌ قشيبُ

ثم يقول انه وان كبر وعلاه الشيب فهو باق على عهد قومه به فارس لا يفارق السيف عاتقه :

وإن أكبرْ فلا بأطيرِ أصْرٍ يفارقُ عاتقي ذكرٌ خشيبُ

ودائما ما يعوض الشاعر عن سني عمره وشيب الراس بالفعال الكريمة والمناقب المشهودة والعمر الذي افناه في المكرمات ليخلص الى ان عمره لم يذهب هباء ا وان لا عار في الشيب مثلما فعل ربيعة بن مقروم مع عاذلته التي عيرته بأنه شيخ كبير يقول[٣٨] :

وقالت: إنه شيخ كبير فلج بها، ولم ترع، امتناع
فإما أمس قد راجعت حلمي ولاح علي من شيب قناع
فقد أصل الخليل وإن نآني وغب عدواتي كلأ جداع
وأحفظ بالمغيبة أمر قومي فلا يسدى لدي ولا يضاع

ويستمر ربيعة في ذكر مناقبه ليخلص الى انه لا يستحق الذم حتى وان اعتراه الشيب وحنى الدهر ظهره فما به من خصال يسوغ مدحه لا ذمه يقول :

ويأبى الـــــذم لي أني كريـــــم وأن محلـــــي القبـــل اليفـــاع

وصاحبة الاسود بن يعفر صدته لما رات شيبه وذهاب صباه يقول [٣٩]

لمـــا رأت أن شـــيب المرء شـــامله بعد الشـــباب، وكان الشيب مســـؤوما

صـــدت وقالت: أرى شـــيبا تفرعـــه إن الشـــباب الذي يعلـــو الجراثـيما

والحنين الى الشباب اهم سمات عذليات الشيب ، فالشاعر يتذكر ويحن الى ايام صباه حين كان مرغوبا من الغواني يتقد حيوية ونشاطا يثب الى المكارم وثبا ، من ذلك ما حدثنا به دوسربن ذهيل القريعي حين عيرته لائمته بالشيب الذي علاه[٤٠]

وقائلـــــةٍ مَا بالُ دوســـــرَ بعدَنا صحَـــا قلبُهُ عـــنْ آلِ ليلَى وعـــنْ هِنْدِ

فإنْ تـــــكُ أثوابي تمزَّقـــنَ لِلبِـلى فإنِّـــي كَنصلِ السيفِ في خَلَـــقِ الغِمدِ

وإنْ يـــــكُ شيبٌ قدْ عَلانـــي فربَّمَا أرَاني في ريـــــعِ الشبابِ مـــعَ المُردِ

طويـــلُ يـــــد السربالِ أغيـــدُ للصِّبا أكُفُّ على ذِفـــرَايَ ذَا خُصلٍ جَعـــــدِ

وحَنَّتْ قلُوصي مـــنْ عَدانَ إلى نَجـدٍ ولـــــمْ يُنسِـها أوطانَها قِـــدَمُ العَهـدِ

ولعل اقسى ما عاناه الشعراء استهزاء النساء بهم وغمز الحسان الرعابيب اذ الم هذا الامر الشعراء فصوروه بلوحات تقطر اسى وتعبر ايما تعبير عما يجيش في صدورهم من حنين الى غابر الايام ، يوم كانت الغواني يملن اليهم ويتمنين قربهم وقد صور ابن مقبل هذا الشعور في احدى قصائده ورد على من هزات به من النساء قائلاً [٤١] :

قالتْ سُلَيـــمى بِبَطْنِ القاعِ مـــن سُرُحٍ لا خَيـــرَ في العَيْشِ بَعْدَ الشَّيبِ والكبـــرِ

واسْتَهْزَأتْ تِرْبُـــها مِنِّـــي فقلْتُ لَهـاً مـــــاذا تَعِيبانِ مِـــنِّي يا بنتَي عَصَـــــرِ؟

لـــــولا الحَيـــاءُ ولـولا الدِّينُ عِبْتُكُما ببعْضِ مـــا فيكُما إذْ عِبْتُما عَـــــوَرِي

قَـــــدْ قلتُما لـــــيَ قَولاً لا أبا لَكُما فيـــــه حديثٌ على ما كـــان مِنْ قِصَرِ

مـــا أنْتُما والَّـــذي خالَتْ حلومُكمـــا إلاَّ كَحَيـــــرانَ إذْ يَسْري بـــلا قَمَـــرِ

إنْ يَنْقُضِ الـــدَّهْرُ منِّي مِـــــرَّةً لِبلَى فالـــــدَّهْرُ أرودُ بالأقـــوامِ ذُو غِيَـــرَ

لقـــدْ قضَيتُ فـــلا تَسْتَهزِئا سَفهـــاً مِمَّا تَقَمَّأتُـــــهُ مِـــــنْ لَذَّةٍ وطَـــــري

((العذل على الفقر))

لقد عالج الشعراء معظم امور حياتهم من خلال هذا الوعاء التعبيري ـ العاذلة ـ ولم يتركوا شيئا عن لهم واجهدهم في حياتهم القاسية تلك الا وضمنوه قصائدهم ، ولان الفقر كان هاجس المرأة الاول في حياة الجدب التي يحياها ابناء البوادي والصحارى فقد اكثر الشعراء من ذكره فمنهم من لامته امراته على اتلافه المال بعد الجهد المبذول في الحصول عليه مثلما مر ذكره انفا واخرين ليموا على قلة مالهم وشحة حياتهم مثل ذو الخرق الطهوي الذي عذلته زوجته حين اقبل الجدب وعز العيش فبرمت بحياتها في ضجر ، وحثته على طلب المال ، فخفض من جأشها وحثها على ان تصبر كما صبر يقول [٤٢]:

لما رأت إبـــــلي جاءت حلوبتـــــها هزلى عجافـــا عليها الريش والـورق

قالت : ألا تبتغـــي مـــالا تعيش بـــه مما تلاقـــي وشـــــر العيشة الرمـق

فيئي إليـــــــك فإنا معشر صبـــــر في الجدب لا خفـــــة فينا ولا نـــزق

إنا إذا حطمـــــــة حتت لنا ورقـــا نمارس العـــــود حتى ينبت الـــورق

وها هي تماضر امرأة عروة تعذله على الفقر وتشكو ضيق ذات اليد وتحثه على الخروج لجلب الغنائم وسلب الاموال يقول [٤٣] :

قالت تـــماضر إذ رأت مالي خـــوى وجفـــــا الأقاربُ، فالفؤادُ قريـــحُ

ما لـــي رأيتُكَ في النّـــديّ منكَّساً وَصِيـــاً، كأنّكَ في النّـــديّ نَطيح؟

خاطـــر بنفسك كي تصيب غنيمـــة إنّ القُعـــودَ، مـــعَ العِيالِ، قبيـــح

المـــال فيه مهابـــة وتجلـــة والفَقْرُ فِيـــهِ مذلّـــــة وفُضُـوح

ومثلها امرأة الطفيل الغنوي الذي جاجته بالفقر وضيق ذات اليد فما كان منه الا ان دفع نفسه بما يملك من سجايا وخصال فهو الفارس الحامي الذمار الذي لا يعيبه قلة ماله يقول [٤٤] :

انـــــي وان قل مالي لا يفارقنـــي مثل النعامـــــة في اوصالها طـــول

تقريبـــها المرطى والجوز معتـــدل كانها ســـــبد بالمـــاء مغســـول

اوقـــــارح في الغرابيات ذو نـسب وفي الجـــــراء مسـح الشد اجفيـل

ثم ينتقل من فروسيته الى خصلة كريمة اخرى هي حماية الجار والتعفف من التعرض لحليلة الجار وابن العم يقول :

ولا اقـــول لجـــار البيت يتبعنـــي نـــفس محـــلك ان الجـــو محلـــول

ولا اخالـــف جـــاري في حليلتـــه ولا ابـــن عمـــي غالتني اذا غـول

وللمخضرمين معالجة اخرى لعاذلاتهم فهم يحثونها على الصبر والايمان بالرزق وهذا معنى ديني جديد لم يسبق للجاهليين ان طرقوهم ، فالحياة لدى الجاهليين تنقضي بانقضاء العمر والصبر على مر الزمان هو فعل دنيوي يهون من

شظف العيش ووعورته ، اما عن المخضرمين فجزاء الصبر هو الثواب الاخروي والقناعة لديهم هو سكينة وايمان وتقبل لحكم الله .

يقول ابو زبيد الطائي حاثا عاذلته على الصبر [٤٥]:

يا اســـم صبرا على ما كان من حدث ان الحـــوادث ملـــقى ومنتظـــــر
صبـــــرا على حدثان الدهر وانقبضي عـــن الدنـــاءة ان الحر يصطبـــــر
ولا تتبعيـــــن ذا هـــم تكابـــــده كانـــما النـــار في الاحشاء مستعـــر

ثم يخلص الى حقيقة دينية مفادها ان الرزق مكتوب في لوح محفوظ :

فمـــا رزقـت فان الله جالبـــــــه ومـــا حرمت فما يجري بـــه القـــدر

وهذا الجميح يذكر نفار زوجه منه واسمها امامة ، وانها سمعت لرجل من اعدائه حرضها على مضارته ، فلم يعبا بذلك ، ويصف نفسه بالذكاء وقوة العزم وكمال التجربة وحنكة السن ، ويتحدث عن جرأتها عليه ، على حين انها في الشدائد لا تغني شيئاً ، ويتهمها بأن قد كان لفقره اثر في نشوزها ، ويامرها بالصبر ويؤملها الميسرة ، يقول [٤٦] :

أَمْسَـــتْ أُمامـــــةُ صَمْتاً ما تُكلِّمنـا مجنونـــــــةٌ أَم أَحَسَّتْ أَهـــلَ خَرُّوبِ
مَـــرَّتْ براكبِ مَلْهُـــوزٍ فَقال لـــها: ضُـرِّي الجُمَيْحَ ومُسِّيـــهِ بتعذيـــبِ
ولـــو أَصابتْ لقالتْ، وهي صادقـــةٌ إِنَّ الرِّياضـــةَ لا تُنْصِبْكِ لِلشِّـــيبِ
يأَبَـــى الذَّكاءُ ويأَبَى أَنَّ شَـــيخَكُمُ لَن يعطِـــيَ الآنَ عن ضربٍ وتأْديـــبِ
أَمَّـــا إِذا حَرَدَتْ حَرْدِي فَمُجْرِيَـــةٌ جِـــرْدَاءُ تَمْنَعُ غِيـــلاً غيـــرَ مَقْرُوبِ
وإِنَّ يكُنْ حـــادثٌ يُخْشَى فذُو عِلَـــقٍ تَـــظَلُّ تَزْبُرُهُ مِـــن خَشْيَةِ الذِّيـــبِ
فإِن يَكُنْ أَهلُـــها حَلُّـــوا على قِضَّـــةٍ فـــإِنَّ أَهلِـــي الأُولَى حَلُّـــوا بمَلْحُوبِ
لمَّـــا رأَتْ إِبلـــي قَلَّتْ حَلُوبَتُـــها وكـــلُّ عامٍ عليـــها عامُ تجنيـــبِ
أَبقَى الحـــوادثُ منها وهْي تَتْبعـــها والحـــقُّ صِرْمَـــةَ راعٍ غيـــرِ مغلوبِ
كأَنَّ راعِيَنَـــا يَـــحْدُو بها حُمُـــراً بَيْنَ الأَبـــارِقِ مِـــنْ مَّكْرَانَ فاللُّوبِ
فإِنْ تَقَـــرِّي بِنَـــا عَيْنـــاً وتَخْتَفِضِي فِينَـــا وتَنتَظِري كَـــرِّي وتَغْرِيبِـي
فَأَقْنَـــيْ لعلَّكِ أَنْ تَحْظَيْ وَتحْتَلِبِـــي في سَـــحْبَلٍ مِن مُسُوكِ الضَّأْنِ مُنْجوبِ

((عذل الفرسان)) :

شغل انسان الجاهلية بالموت وتوقف عنده في حيرة ودهشة اذ كانت مجهولية الموت وعدم وضوح الرؤية فيما بعد الموت عاملين اسهما في زيادة حيرته ونزوعه الى الخوف من الموت ، ان الانسان نزاع الى الخوف من المجهول ومن كل ظاهرة ليست لديه تفسيرات واضحة لها ، فقد ظن الجاهليون ان الموت هو نهاية الحياة وان لا شيء يعقب ذلك فلم يستوعبوا فكرة الحياة الاخرى ولا فكرة العقاب والثواب الاخروية ، ولم تكن في اذهان اهل الجاهلية عن الفناء سوى افكار لا تتسم بالقدرة على الاجابة او التفسير بل هي افكار تسليمية عامة ومنها ان الموت حقيقة لا مفر منها ((وهذا يلغي كل اعتبارات الحذر والحيطة لم تـأتي به الايام من حاجة ، فالنهاية لا يمكن ان يتلافاها غني بغناه او راشد بما يصطنع من الرشاد ، والغني كالفقير والراشد كالغاوي والحياة والموت مثلان . وفي هذا يقول طرفة :

أرى قبـــــر نحام بخيـــل بمالـــــه كقبـــــر غـــــوي في البطالة مفســـــد
تـــــرى جثوتين مـــن تـــراب عليهما صفائـــــح صم مـــــن صفيـح منضد
أرى المـــوت يعتام الكـــرام ويصطفي عقيلـــــة مـــــال الفاحش المتشـــدد

والفكرة الاخرى هي ان الموت قد يكون قريباً ... بل هذ يكون غدا وهذا يدفع الى اغتنام غفلات الدهر والمبادرة الى التمتع بالحياة وفي ذلك يقول طرفة :

لعمـــرك ان الموت ما اخطأ الفتـــــى لكالطـــــول المرخى وثنيـــاة باليـــد

ويقول :

اذا كنت لا تســـطيع دفـــــع منيتي فدعنـــــي ابادرهـــــا بما ملكت يـــدي

ويقول حسان :

فاشـــرب مـــن الخمر ما آتاك مشربه واعلـــم بأن كل عيش صالـــــح فاني

وفي السباق بين الانسان والموت يقول الحارث بن ظالم :

اعـــزفالي بلـــــــذة قينتيـــــــا قبـــــل ان يبكر المنـــــون عليـــا

وحقيقة الامر في هذا السياق ان الشاعر لا يستطيع ان يصرف ذهنه عن التفكير في الموت كما هو واضح))[٤٧] .

وعلى العموم فان فلسفة الموت التي عالجها الشعراء الجاهليون والمخضرمون غرفت من معين هذين الفكرتين واعني بهما فكرة حتمية الموت وفكرة قرب الموت ودنو الاجل ، ان صورة الموت روعة ومرعبة وقد صور بعض الشعراء هذه الصورة وكيف تسلب الشباب وتلحق الرجال بالتراب يصور امرؤ القيس ذلك في قوله [٤٨] :

فبـــعضَ اللـــــوم عاذلتي فإنـــي ستكفينـــــي التجـــاربُ وانتســـابي
إلـــى عرقِ الثرى وشجت عروقـــي وهـــــذا الموت يسلبني شـــبابي
ونفســـي ،، سَوفَ يَسْلُبُها ، وجِرْمـي فيلحِقنـــــي وشـــــيكا بالتـــراب

ألـــــم أنض المطـــي بكـلِّ خـرق أمَـــقَ الطُّـــــولِ، لمَّـــاعِ السَّرابِ

وابو ذويب الهذلي يورد لنا صورة اليمة للحظات موته وما تفعل بناته وهن يعدنه في لحظات خروج الروح [٤٩]:

أعـــــــاذل أبقـــي للملامـة حظها إذا راح عنـــــي بالجلية عائـــدي

فقالـــــوا تركنـــاه تزلزل نفســـه إذا أســـــندوني أو كـــذا غير ســاند

وقـــام بناتـــــي بالنعال حواسـرا فألصقن وقـــــع السبت تحت القـــلائد

الشاعر يصور لنا تفاصيل موته ولم يترك من تفاصيل موته شيئا ، وذلك من خلال حضور الصورة في ذهنه اذ يقول لها لومي ان اردت ، اذا كان لملامتك حظ ، ولم تندمي على ما بدر منك من لوم ، اذا راح عني عوادي بالخبر اليقين ، وقالوا تركناه ترجف نفسه عند الموت في صدره وقد دنا اجله ، يقول الشاعر قام بناتي ينظرن لي نظرة حسرة والصقن بضرب راحة اليد على صدورهن

ويقول الاسود بن يعفر ان الموت ات ولو افتديته باموالي فلن يرضى الا بسلبي حياتي [٥٠] :

ولقـــد علمتُ سِـوَى الذِي نَبَّأْتِنـــي أَنَّ السَّـــبِيلَ ســـبِيلُ ذِي الأَعْـــوَادِ

إِنَّ المَنِيَّـــــةَ والحُتُوفَ كِلاَهُمـــــا يُـــوفِي المخَارِمَ يَرْقُبـــانِ سـوَادِي

لَن يَرْضَيَـــا مِنِّـــي وَفَاءَ رَهِينَـــةٍ مِـــن دُونِ نَفْسِي، طَارِفـــي وتلادِي

والمرقش الاكبر يقرر حقيقة ان الموت سيدهم الجميع ولا يخلد الا الجبال [٥١]

فاذْهَـبْ فِـدىً لَكَ ابْنُ عمِّـــكَ لاَ يَخْلُـــدُ إِلاَّ شَـــابَـــةٌ وأَدَمُ

لو كانَ حـــــيٌّ ناجِيـــاً لَنَجَا مـــن يَوْمِـــهِ المُزَلَّمُ الأَعْصَـــمْ

في باذِخـــاتٍ مِـــنْ عَمَايَـــةَ أَوْ يَرْفَعُـــــهُ دُونَ السَّـــماءِ خِيَمْ

مِنْ دُونـــهِ بَيْضُ الأَنُـــوقِ وفوْ قَـــهُ طوِيـــلُ المَنكِبَيْنِ أَشَـــمْ

يـــرقاهُ حَيْثُ شـــاءَ مِنْـــهُ وإِ مَّـــا تُنْسِـــهِ مَنِيَّـــةٌ يَـهْرِمْ

فَغَالَـــهُ رَيـــب الحـــوَادِثِ حَ تَّـــى زَلَّ عـــن أَرْيـــادِهِ فَحُطِمْ

لَيْسَ عَلَى طـــولِ الْحَيَـــاةِ نَدَمْ ومِـــنْ وَرَاءِ المَـــرْءِ مـا يَعْلَمْ

يَـــهْلِكُ وَالِـــدٌ ويَخْلُفُ مَـــوْ لُـــودٌ وكُـــلُّ ذي أَبٍ يَيْتَـــمْ

والوَالِـــدَاتُ يَسْتَفِدْنَ غِنـــيٍ ثُـــمَّ عَلَى المِقْدارِ مَـــنْ يَـــعْقَمْ

والمرقش الاصغر يصور الرعب من مداهمـــة الموت لبني ادم حتى وان كانوا في شرخ الشباب وريعان الصبا قائلا [٥٢] :

ولِلْفَتَى غَائِـــــلٌ يَغُولُـــــهُ يا ابْنَـــــةَ عَجْلاَنَ مِنْ وَقْعِ الحُتُـــومْ

ودهم الموت للانسان فكرة دارت على السنة الشعراء الجاهليين والمخضرمين بكثرة ، فالموت يهدم اللذات ويفرق الاحبة ويقطع عليهم حياتهم اللاهية الصاخبة ، يقول المرقش الاكبر واصفا هذه الحالة [٥٣] :

بينـــا الفتى يسعى ويسعى لـــه تـــاح لـــه مـــن أمره خالج

يتـــرك ما رقـــح مـــن عيشه يعيـــث فيـــه همج هامـــج

ويطلب دريد بن الصمة من عاذلته ان تكف عن لومه وان تتعقل وهي تحذره المنية ودنو الاجل فهي لا تعلم الغيب ولا تدري متى يحين الاجل وتستوفى الانفس يقول [٥٤]:

اعـــاذل مهلاً بعض لومك واقصدي وان كان علـــم الغيب عنـــدك فارشدي

ثم يسلم بحقيقة الموت وحتميته وانه سيدهم الجميع وان الانسان راحل لامحالة وسيفنى عمره كما ينفد زاد المسافر يقول :

اعـــاذلتي كل امـــرىء واين امـــه متـــاع كزاد الـــراكب المتـــزود

ولا يختلف المتلمس عن دريد في ايمانه بحتمية الموت والطريق الواجب سلوكه في الحياة من عدم القبول بالضيم والسعي الى المكرمات وعدم القعود والنكوص مخافة الردى يقول [٥٥]:

ألم تـــر أن المـــرء رهن منية صريـــع لعافي الطير أو سوف يرمس

فلا تقبلـــن ضيما مخافـــة ميتـــة وموتـــن بها حرا وجلـــدك أملس

فما النـــاس إلا مـــا رأوا وتحدثوا ومـــا العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا

وطرفة يردع عاذلته ويسخر منها قائلا انها تعذله وتحذره الموت وكانها تعلم الغيب وما ياتي به الغد ، ويفند زعمها بان الخلود وعلو الشأن يكمن في الثراء وادخار الاموال ليقرر بأن الموت سيدركه اينما ذهب واني حل حتى لو اتخذ لنفسه حصنا فوق جبل لا ترتقيه الايائل الجبلية وان حكم الله في عباده نافذ لا قبل لاحد على رده ، يقول [٥٦]:

وتقـــولُ عـــاذلتي وليسَ لها بغـــدٍ ولا مـــا بعدَهُ عِلْـــمُ

إِنْ الثَّـــرَاءَ هـــوَ الْخُلودُ، وإنّ المَـــرْءَ يُكرِبُ يَوْمَـــهُ العُدْمُ

ولَئِـــنْ بَنَيْتُ إلى المُشَـــقَّرِ في هضبٍ تـــقصِّر دونَـــهُ العُـصْمُ

لَتُنَقِّبَـــنْ عَنّـــي المَنِيّةُ، إنّ اللهَ ليـــسَ لحُكمِـــهِ حُكْـــمُ

ان الموت بالمرصاد للرجال فهو قادم لا محالة هكذا يؤمن عدي بن زيد [٥٧] :

أعـــــاذل أن الجهل مـــن ذلـة الفتى وأن المنايـــــا للرجـــــال بمرصد
كفى زاجـــرآ للمرء أيـــــام دهره تـــــروح لـــه بالواعظـــات وتغدي

في احيان معينة تضيع الفروق بني العاذلة المفترضة والعاذلة الحقيقية اذ ان التشابه في بنية العذلية التي تتصدرها عاذلة مجهولة واختها ذات العاذلة الواقعية يدعو الى التعامل معهما بمقاربة واحدة وبرؤية شعرية ونقدية متشابهة ، هذا الامر سوغ للشاعر ان يدخل بعض المقاطع العذلية التي ينص فيها الشاعر على اسم عاذلته في نطاق بحثه فها هو عنترة يذكر اسم امه ويضعها موضع العاذلة او اللائمة وهي في هذا المقطع تلومه بما ليم به الفرسان وهو الاقدام في يوم الوغى يقول [٥٨] :

تُعَنِّفنـــــــي زَبيبةُ في المـــــلاَمِ على الإقـــــــدام في يـــــومِ الزّحام
تخـــــافُ عليَّ أن ألقـــى حمامـــــي بطعـــــن الرُّمـــــح أو ضربِ الحسام
مـــــقالٌ ليسَ يَقْبَلُـــــــهُ كِـــــرامٌ ولا يـــرضى بـــــه غيـــــرُ اللّئام

ثم ينتقل الى الجانب الفلسفي الذي طالما يتناوله الفرسان في شان الموت وحسن الخاتمة ويتطرق الى ان الموت قد يخطىء من يرمي بنفسه في معمعان الحرب بينما لا ينجو من ينام في فراشه مؤثرا السلامة حتى وان كان طفلا لم يبلغ الفطام يقول :

يـــخوضُ الشّـــــيْخُ في بَحْرِ المنايـــا ويـــــرْجعُ ســـــــالماً والبَحْرُ طـــــامِ
ويأتـــــي الموْتُ طِفـــــــلاً في مُهودٍ ويلقـــــــى حتـــــفهُ قبلَ الفطـــــام

واخيراً يسوق ابيات الحكمة التي طالما تشدق بها الفرسان من ان الموت هو ليس موت الجسد بل هو ضياع الذكر او افوله وان الموت عزا افضل الف مرة من الموت المذل الذي لا يليق بالفرسان الاجواد بل هو لباس الخانعين المكنعين يقول :

فـــــــلا ترْض بمنقَصَـــــــةٍ وَذُلٍّ وتقنـــــعْ بالقليـــــل مـــــنَ الحطام
فَعيْشُـــــــكَ تحْتَ ظلّ العزّ يوْمـــــاً ولا تحت المذلَّـــــــــــةِ ألفَ عـــام

ومثلما ضمن عنترة عذليته اسم امه ضمن سلامة بن جندل السعدي عذليته ابنته والسياق واحد عند الفرسان جميعا العذل على الاقدام على الموت وخوف العاذلة من الترمل او اليتم والاشفاق من الثكل يقول سلامة [٥٩] :

تقـــــولُ ابنتي : إنَّ انطلاقكَ واحـــداً إلى الـــــرَّوع، يوماً تاركي لا أباليـــا
دَعِينـــــا مِنَ الإشفاقِ ، أو قَدِّمي لَنا مـــــنَ الحدثَانِ والمنيَّـــــةِ راقيـــا

والخاتمة تدور دوما حول فلسفة الفرسان في الموت والحياة ، فهم لا يابهون الموت ولا يركنون الى الدعة والسكون بل تطمح نفوسهم الى المجد الذي لا يعرقل سعيهم اليه خوف من منية او رهبة من عدو شرس يقول :

ســـــتتلفُ نفسي، أو سأجمعُ هجمـــةً تـــــرى ساقيها يألمـــانِ التَّراقيـــا

وعروة بن الورد كثير الاسفار والغارات لا يلبث في بيته وبين ظهراني عياله الا قليلاً وزوجه ام حسان تلومه على ذلك وتشفق عليه ان يهلك في احدى غاراته مع صعاليكه يقول [٦٠] :

أرى أم حســـــان الغداة تلومنـــــي تخوفنـــــي الأعـداء والنفس أخـــوف
تقول سليـــــمى لـو أقمت لسرنـــــا ولم تـــــدرِ أنـي للمُقـــــامِ أُطـــوّفُ

فالموت حاضر دوما في مخيلة الشعراء فهو قدر محتوم ونهاية لابد منها وقد يغشى الانسان في اي مكان ومن غير موعد ، اذ قد يسلم من يرمي بنفسه في معمعان الحرب وقد يموت من يرقد في اهله مؤثراً السلامة ، يقول :

لـــعلّ الـــذي خوّفتِنـا مـن أمامِنـــــا يصادفُـــــــه ، في أهلِـــــهِ، المتخلِّفُ

وعروة كثير الطلب من عاذلته ان تقصر عن عذله وتدعه يطوف في البلاد ليصيب الغنى ليستعين به على سد رمق الفقراء الصعاليك يقول : [٦١]

دعِينـــــي أُطوّفْ في البلادِ، لعلّنـــــي أُفِيـــــدُ غِنًى ، فيه لـــذي الحقّ محمِلُ
أليس عظيمـــــــاً أن تلم ملمـــــة وليـس علينـــــا في الحقوق معـــول
فـــأن نحن لم نملك دفاعـــا بحادث تـــلم به الايـــام فالموت اجمـــل

ولعل ولع الفرسان بالفخر ، دفعهم في بعض الاحيان الى الدخول في الرد على العواذل دونما حاجة الى ذكر عذلهن مثلما فعل الحادرة الذي لم ينص في قصيدته اللامية على كلام عاذلته بل دخل مباشرة في دعواه وفي استعراض مناقبه ومناقب قومه ، يقول وهو يبعد عنه لائمته [٦٢] :

فيئـــــي إِلَيْكِ فَإِنَّنـــــي رَجُـــلٌ لـــمْ يخزني حســـبي وَ لا أصلـي
أدعُ الفواحـــشَ أنْ أســـبَّ بـــها وَ شـــــريكها فكليهمـــــا أقلـي
وَوَجَـــدْتُ آبـــابي لَهُمْ خُلُـــــقٌ عَفُّ الشَّمائِـــل غَيْـــــرُ ذي دَخَلِ

ثم يشكك بصدق عاذلته ويتهمها باخفاء ما تعرفه عن شجاعة قومه وصبرهم في الوقائع :

لـــــو تَصْدُقيـــــنَ لَقُلْتِ إِنَّهُـــمُ صُبُـــرٌ علـــى النَّـــجَداتِ والأَزْلِ
و على الرزيـــــة مـــــنْ نفوسهم وَ تلاتـــــلِ اللزبـــــاتِ والقتـــلِ

ثم يحثها على السؤال عن قومه ان كانت تجهل حالهم :

هَـــــلاَّ سَأَلْتِ إذا هُمُ احْتَمَلُـــوا فَتَحَوَّلُـــــوا لِخَطِيطَـــة مَـــــحْلِ
يُعْيِـــــي الرِّعاءَ بها مَسارِحُهُـــمْ وَجَفَتْ مَراتِعُهـــــا عَـــنِ البُـــزْلِ
إذْ لا يـــدنسنا الشـــــــتاء وَ لا نـــطأُ الضعيـــــفَ إرادة الأكـــــلِ
وَيُنَفِّســـــونَ عَـــن المُضـاف إذا نـــظرَ الفوارسُ عـــورة الرجـــلِ
المُقْبِليـــــنَ نُحورَ خَيْلِهـــم حـــدَّ الرمـــــاحِ وَ غبيـة النبـــلِ

وفارس مثل دريد بن الصمة لا يرضى في عذليته الا بسوق اهم مناقب الفرسان ليشفي غليله من عاذلة احرقت باللوم قلبه ومنعته الهجوع ، يقول [٦٣] :

أعـــاذلَ كمْ مِنْ نـــارِ حربٍ غشيتها وكم لـــيَ مِـــنْ يـومٍ أَغَرَّ مُحَجَّـــلِ
وإنْ تسألـــــي الأقوامَ عنّي فإننـــي لمشتركٌ مالـــــي فدونـــك فاسألـي
وإنـــــي لعفٌّ عن مطاعـــمَ تُتَّقى ومُكْرِمُ نفســـي عنْ دنيّـــاتِ مأكـــلِ
ومـــــا إنْ كسبتُ المـــالَ إلاّ لبذلهِ لـــطارِقِ ليـــلٍ أو لـــعانٍ مُكَبَّـــلِ

هذه هي صفات الفرسان : البسالة في الحرب والوقائع ، والتعفف عن الدنيات وعن الخوض في المحارم ، والترفع عن اكل مال الضعيف ، فضلا عن بذل المال للفقيروالمقتر ، واكرام الطارق ، وفداء الاسير المروع .

والفرسان عادة ما يتهمون من عواذلهم بانهم يلقون بأنفسهم الى التهلكه ويعمدون الى المنية عمدا وهذا ما يحز في نفوس نسائهم وبناتهم ، فأم قيس زوج كعب بن سعد الغنوي ترى ان سعدا يرمي بنفسه عامداً مرامي الاغتيال ويلقي بنفسه في مواطن الهلاك ، يقول كعب في حوار مع لائمته [٦٤]:

لـــــقد انصبتني ام قيس تلومنـــــي ومـــــا لوم مثلي بـــاطلا بجميـــل
تقول : الا يـــااســتبق نفسك ، لا تكـــن تســـاق لغبراء المقام دحول
اراك امرأ ترمي بنفسك عامدا مرامي تغتال الرجال بغول

وعاذلة عمرو بن شاس الاسدي وان كانت مسلمة فان خشيتها لا تختلف عن خشية العاذلة الجاهلية على صاحبها فكلتاهما تخشيان الثكل ولكن جواب المسلم على عاذلته ينزع نزعة جديدة حتمها الاسلام فهو يركن الى رب يجازيه على فعله ، فهو حين يهلك لا يهلك عبثا وانما ابتغاء مرضاة الله وطمعا في جزائه وجنته يقول [٦٥]:

وعـــــاذلة تخشى الردى ان يصيبني تـــــروح وتغدو بالملامـــــــة والقسم
تقول هلكنـــــا ان هلكت وانمـــــا علـــى الله ارزاق العبـــاد كما زعـــم

ان الشاعرالمخضرم اصبح له غاية اخرى غير الغاية التي كان يبتغيها الشاعر الجاهلي فذاك كان يروم خلود الذكر والصيت الشائع بين العرب وهذا ـ اي المسلم ـ يريد مرضاة الله ويسعى الى جنة عرضها السموات والارض والاثنان يرون في اقدامهم على الموت سعيا نحو هدف يستحق العناء ولا يستوجب اللوم ، واللافت ان افتراق الشاعرين الجاهلي والمسلم في هدف الموت لم ينعكس على عاذلتيهما فعلى الرغم من ان عاذلة الشاعر المخضرم اضحت مسلمة فقد بقيت على حالها يوم كانت مشركة تعذل رجلها وتمنعه من ان يرمي بنفسه الى التهلكة وظل اشفاقها على نفسها واولادها كما هو على الرغم من كل ما احاق بدلالة الموت من تغييرات فرضها الاسلام ، فالموت بدلالته الجاهلية انقطاع تام واندثار لا طائل منه بنظر العاذلة اما الموت جهاداً في الاسلام فهو بداية لحياة اخرى يسعد فيها الناس ولايصيبهم فيها نصب ولا لغوب .

فها هو الشاعر المخضرم النابغة الجعدي يرد على عاذلته التي تحثه على القعود وهي باكية قائلاً ان خروجه الى حومة القتال خروج مضطر يحتمه كتاب الله الذي لا مرد لحكمه ، فهو مامور بالجهاد ولا حجه له بالقعود فهو ليس باعرج ولا اعمى او به علة ليعتذر بها عن الخروج ن يقول النابغة الجعدي [٦٦] :

بـــاتت تذكرني بالله قاعـــــــدة والدمـــــع ينهل مـــن شأنيهما ســـبلا
يـــا بنة عمـــي كتـاب الله أخرجني عنـــكم وهل أمنـــعن الله مـــا فعلا
فـإن رجعت فرب النـــاس يرجعني وإن لـــحقت بربـــي فابتغي بـــدلا
مـــا كنت أعرج أو أعمـــى فيعذرني أو ضارعـــا من ضنى لم يستطع حولا

((العذل على الكرم)) :

لعل المتتبع المتمعن في الاغراض التي عذلت فيها العواذل يرى بوضوح انها تدور حول مسائل قيمية وسلوكية تبناها المجتمع العربي بشدة حتى صارت جزءا لا يتجزا من شخصيته وسلوكا تواضع عليه العرب واصبح الخروج عليه سببا للمذمة والتمسك به مدعاة للحمد والثناء ، فلا يختلف اثنان ولا تنتطح عنزان في ان الكرم وقرى الاضياف كان شغل العرب الشاغل ومدار شعرهم مذمة او ثناءاً ، هجاءا او مديحا ، لذا فان الكرم دار على السنتهم وعلق بنفوسهم في كل مجالسهم وحواراتهم ، ليس غريبا اذن ان يكون العذل عليه واللوم على الاسراف فيه احد اهم المواضيع التي عالجها الشاعر العربي وبثه في قصائده وأنبرى له ليبين من خلاله فلسفة حياته وتفاصيلات سلوكه ، ولان الكرم من اهم مقومات البدوي تكتمل الشخصية الا فيه ولا تنضج الرجولة بدونه فقد ادعاه الجميع ، الصادق منهم والكاذب ، السخي والشحيح ، فها هو حاتم طي اكرم العرب واسخاهم يخصص له اكثر من قصيدة يعصي فيها لائمته ويقرعها على عذلها له فيقول[٦٧]:

أعـــــاذل إن المال غير مخلـــد وإن الغنـــــى عاريـــــة فتـــزود
فكـــم مـــن جواد يفسد اليـــوم جوده وســـاوس قد خوفتـــه الفقر في غد

ان حاتم لا يكتفي بعصيان عاذلته بل هو يسد الابواب امام عذلها في شان يابى العربي الجاهلي ان يساوم عليه او يهون من شانه وهو ما الفى عليه ابائه واجداده ، فالعربي لايحيد عن فعل اسلافه فكيف يكف عن الكرم وقد وجد عليه ابائه وكيف يسمع للائمته ولم يطرق سمعه ان ابائه فعلوا يقول :

وكم ليـــم ابائي فما كف جودهـــــم مـــــــلام ، ومــن ايديهم خلقت يــدي

وها هو سهم بن حنظلة الغنوي يشكو العواذل وقد انصبنه عبثا ، ويلمنه على الانفاق ، يقول[٦٨] :

إنَّ العـــــواذِلَ قــد أتعبنَني نَصَبَــا وَخِلتُهُنَّ ضعيــفاتِ القُــوى كُذُبَــــا

ألغادِيـــــاتِ عَلى لَـــومِ الفَتَى سَفَهاً فِيــمَا اســتفادَ ولا يَرْجِعْنَ ما ذهَبَــا

ثم يبذل نصحه لمن يرجو الغنى ان لا يقعد عاجزا وانما ينطلق في الارض جادا ، على فرس منعوت ، حتى يصادف المال او يلقى المنية ، فان احدهما اشرف من القعود وسؤال مولى السوء ، الذي يدنو منه حين اليسر ، ويتنكر له اذا اصابه العسر يقول :

يـــــا أيُّها الراكبُ المُزْجِى مَطيَّتَــهُ لا نِعمَـــــــةً تَبتَغي عنــدي وَلا نَسَــبا

أعْص العَواذِلَ وَارمِ الليـلَ عنْ عُرُضٍ بـــذي سَبيبٍ يُقَاســـي لَيـــلَهُ خَبَبَــا

يُدنِـــي الفَتَى لِلغِنَى في الراغِبِيـــنَ إذَاً لَيْلُ التِمـــــامِ أهَـــمَّ المُقْتِرِ العَزَبــا

حتَّى يُـصادِفَ مـــالاً أو يُقَـــالَ فتىً لاقــى اللّتي تَشــعبُ الفِتيانَ فانشَعَبَــا

إنَّ ابتِياعَـــكَ مَـــوْلَى السَوْءِ تسألُهُ مِثلُ القُعُودِ ولَــمَّا تَتَّخِـــذْ نَسبَــا

إذَا افتَقَرْتَ نَـــأي واشتدَّ جَانِبُـــــهُ وإنْ رَآكَ غَنيَّـــــاً لانَ واقتَرَبــا

والقصيدة بعد ذلك حافلة بالمعاني الاسلامية التي تظهر بوضوح التحولات الدلالية التي اصابت الرؤى الشعرية للشعراء ، فالسؤال يتوجه الى الله لا الى الناس في تسليم واضح للرزق الذي لا يخطئك وفي تقلب الايام ما بين البؤس والنعيم يقول :

لا بَلْ سَـــلِ الله ما ضَنُّوا عَلَيْكَ بـــهِ ولا يَمُـــنُّ عَليكَ المَـــرءُ ما وَهَبــا

ألا تَرى إنَّمَـــا الدُنيَا مُعلَّلَـــــةٌ أصحابُها ثُـــم تَسري عنْهُـــمُ سَـــلبَا

بَيْنَـــا الفتَى في نَعيمٍ يطمئِنُّ بـــهِ ردَّ البَئِيسَ عليـــهِ الدَهرُ فانقلَبـــا

أو في بَئيسٍ يقاســـيهِ وفي نَـــصَبٍ أمسَـــى وقدْ زايلَ البأســـاءَ والنصَبا

ولبيد بن ربيعة العامري اشد عنفا مع عاذلته فهو لا يكتفي بالتقريع والانكار بل يتعدى ذلك الى التهديد بالمفارقة والانفصال يقول في السياق العذلي ذاته [٦٩] :

دَعـــي اللَّوْمَ أوْ بِيني كشِقٍّ صَديـــعِ فقَدْ لُـمْتِ قَبـلَ اليَـــوْمِ غيرَ مُطيـــعِ

وإنْ كُنْتِ تَهوَيـــنَ الفِراقَ فَفارِقِـــي لأمْرِ شَـــتَاتٍ أوْ لأمْرٍ جَميـــعِ

فلَـــوْ أنّني ثَمَّرْتُ مالـــــي ونَسْلَهُ وأمْسَكْتُ إمســـاكًا كَبُخْلِ مَنيـــعِ

ومثل حاتم طي يرى لبيد ان المال يقي عر ضه من القالة وسوء الخبر ولا يشاطرها الرأي في ان بذل المال من الاسراف والسفه يقول [٧٠] :

أعـــاذِلَ قُومي فاعذُلي الآنَ أو ذري فَلَـسْتُ وإنْ أَقْصَرْتِ عَنِّـــي بِمُقْصِرِ

أعـــاذِلَ لا واللهِ مـــا مِنْ سَلامـةٍ ولَـــو أَشْفَـقَـتْ نَفْسُ الشَّحيحِ المُثَمِّـرِ

أَقِـــي العِرْضَ بالمَالِ التِّلادِ وأَشْتَري بـــهِ الحَمْدَ إنَّ الطِّـالبَ الحَمْدَ مُشْتَري

وكَمْ مُشْـتَرٍ مِـــنْ مِالِهِ حُسْنَ صِيتِهِ لأيَّامِـــــهِ في كُـــلِّ مَبْدًى ومَحْضَرِ

فلبيد ييأس عاذلته من نفسه فهو مصر على فعله لا يردعه شيء ، فهو يرى ان السلامة لا تتاتى للشحيح مثلما ليست بمتناول الكريم بل ان السلامة في حمد الناس الذي يشترى بالمال منهم وهو ليس بدعاً بين الرجال فكم مثله من الذين يشترون باموالهم حسن الصيت الذي يدخرونه لقابل ايامهم ليذاع صيتهم في البادية والحضر على حد سواء ، والسؤدد عند الجاهليين غاية لا يمكن ادراكها الا بالبذل والكرم ، والشاعر يعي ان المال يؤول الى وارثيه ولا يأخذ صاحبه معه منه شيئا ، يقول لبيد مصورا رؤيته للمال [٧١])

تَلُومُ على الإهْلاكِ في غَيـرِ ضَلّـــةٍ وهَلْ لـــيَ مـــا أمسكْتُ إنْ كنتُ باخلا

رَأيتُ التُّقَى والحَمـــدَ خَيـــرَ تجارَةٍ رَباحـــــًا إذا ما المَرْءُ أصْبَحَ ثَاقِـــلا

وهَـــلْ هوَ إلاَّ مـــا ابتَنَى في حَياتِهِ إذا قَذَفُـــوا فَوْقَ الضّريـــحِ الجَنـادِلا

وأثْنَوْا عَلَيْهِ بالـــــذي كانَ عِنْـــدَهُ وَعَضَّ عَلَيْهِ العائـــــداتُ الأنامِـــلا

هذا هو معتقد الجاهلية فهي حياتهم الدنيا يحيون فيها ويموتون فيصيرون الى العدم ولا يبقى لهم الا الذكر الحسن في الدنيا ، لانهم لا يؤمنون بيوم الحساب ولا بثواب او عقاب ولعمري لو كانوا يؤمنون بذلك لزاد حرصهم على سجية الكرم التي عدها الاسلام من الايمان وجعلها وسيلة للتقرب الى الناس والى الله والى الجنة اذ يقول الرسول (ص) في حديثه الصحيح : ((الكريم قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد عن النار والبخيل بعيد عن الله بعيد عن االناس بعيد عن الجنة قريب الى النار)) .

ولهذا فان الشاعر المخضرم تناوله من هذين المنطقين غير المتعارضين ، فهو في اعتزازه بالكرم يكسب حمد الدنيا فضلاً عن مرضاة الله التي اصبحت غاية الشاعر بعد اسلامه ولاجل ذلك فان حسان بن ثابت شاعر الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان حريصاً على اظهار نفسه بهذا المظهر الجميل فيقول في حوار مع عاذلة تلومه على الكرم [٧٢] :

لكِ الخيـــرُ غضّي اللوْمَ عنّي فإننـــي أحبّ مـــن الأخلاقِ مـا كـان أجمـــلا
ذريـنـــي وعلمـي بالأمـورِ وشـــيمتـي فمـــا طائـري يومـاً عليكِ بأخيـــلا
فإن كنتِ لا منّـــي ، ولا مـــن خليقتـي فمنكِ الذي أمسى عـن الخيرِ أعـــزلا
ألـــم تعلمـي أنّـي أرى البُخـلَ سُـــبّةً وأبغـضُ ذا اللونيـــن والمتنقـــلا

ولا ينفك حاتم في لوحته العذلية يذكر حقيقة ما يؤمن به ويعتقده من ان الانسان حين يموت يصبح عظاما بالية لا يبقى منه سوى الذكر الحسن والثناء الجميل ويرى ان لا شي مثل الكرم يمنحه هذه المزية يقول [٧٣]:

وعاذلـــةٍ قامتْ عليّ، تلومنـــــي كأنّـــي، إذا أُعطيتُ مالي، أُضيمُـــها
أعـــاذلَ، إنّ الجودَ ليس بمُهلكـــي ولا يُخلِـــدُ النفسَ الشّحيحةَ لُؤمُـــها
وتُـــذكر أخلاقُ الفتى، وعظامـــه مُغيّبـــةٌ في اللـــحدِ ، بالٍ رَميمُـــها
ومـــــن يبتدعْ خِيماً سوى خِيم نفسهِ يدَعْهُ، ويغلِـــبْهُ على النفسِ خِيمُـــها

ومثل معظم العاذلات فان عاذلة النمر بن تولب لا يحلو لها العذل الا ليلاً بعد ان يفرغ الشاعر من اقراء ضيوفه والانس مع ندمانه وبعد ان يبذل في سبيل اسعاد من حوله الغالي والنفيس فيطعمهم من اطايب ذبائحه ويسقيهم من معتق خمره يقول [٧٤] :

قامت، لتعذلـــني مـــن الليل : اسمعي ، ســـفه تبيتك الملامـــــة فاهجعي
لا تجزعـــي لغـد ، فأمر غد لـــه أتعجليـــن الشـــر ما لـــم تمنـعي
قامت تبكـــى أن ســـبأت لفتيـــة زقـــا وخابيـــة بعود مقطـــع

ان الحلم الذي يبديه بعض الشعراء بأزاء عذلهم يتحول الى ثورة عند البعض الاخر فيضيقون به ذرعاً ويرونه يحرق جلودهم ايما احراق يقول تابط شراً وهو يتميز غيظاً من عاذلته التي تحثه على الابقاء على غنائمه التي غنمها من قطع الطريق والاغارة على القبائل [٧٥] :

بَـــلْ مـن لِعَذَّالـــةٍ خَذَّالـــةٍ أَشِبٍ حَـــرَّقَ باللَّـــومِ جِلـــدِي أَيَّ تَحْرَاقِ
يقـــولُ أَهلكْتَ مـــالاً لَو قَنِعْتَ بـــه مِـــن ثَوبِ صِدْقٍ ومن بَزٍّ وأَعـــلاقِ
عـــاذِلَتي إنَّ بعضَ اللَّـــومِ مَعْنَفَةٌ وهَلْ متـــاعٌ وإنْ أَبقيْتُـــهُ بـــاقِ

لقد اتفق الشعراء على ان اهلاك المال ليس فيه من بأس بل البأس كل البأس ان يعرض المرء للدنايا فيقعد ملوما خامل الذكر ومع اتفاقهم على ان الجود محمود فانهم راوا المذمة في اشياء متعددة فمنهم من يرى ان الجبن هو المذمة واخرين راوا في البخل طامتهم الكبرى واخرين منهم دريد بن الصمة راوا ان الرزء والثكل ليس في انفاق المال بل في فقد الاحبة يقول [٧٦] :

اعـــاذل ان الـــرزء في مثل خالـــد ولا رزء فيـــما اهـلك المرء عن يـــد

وخالد هو اخوه الذي قتله بنو الحرث بن كعب

وعمرو بن شاس الاسدي يقرع عاذلته ايضا محاولا تثبيت فلسفة الفرسان في الموت وتوكيدها ، فالجود لا يهلك أنسانا كما ان البخل لا يخلده يقول [٧٧] :

وعَـــاذِلَةٍ هَبَّتْ بِلَيْلٍ تَلُومُنِـــــي فلـمَّا غَلَـتْ في اللَّـــومِ قُلْتُ لها مَـــهْلا
ذَرِيني فإنِّي لا أَرى المَوتَ تارِكـــاً بَخِيـــلاً ولا ذا جُـــودَةٍ مَيِّتاً هَزْلا
مَتَـــى ما أُصِبْ دُنيا فَلَسْتُ بِكائـــنٍ عليـــها ولو أكثَرْتِ عاذِلَتي قُفْـــلا

وتحدث المرقش الاصغر عن مجاهرة زوجه له بالمفارقة والمغاضبة ، وجعل سبب غضبها انه متلاف للمال ... ثم فخر بمجده وعقله في اسلوب طريف ، ونعى على مكتنزي المال ، الغافلين عن ريب الزمان ، معلنا ان الرزق قدر وتقدير ، لا اجتهاد وتثمير قال [٧٨]

آذَنَتْ جارَتِـــي بِوَشْـــكِ رَحِيـــلِ بَاكِـــراً جاهَـــرَتْ بخَطْبٍ جَلِيـــلِ
أَزْمَعَتْ بالفِـــرَاقِ لَمَّـــا رَأَتْنِـــي أُتْلِـــفُ المـــالَ لا يَـــذُمُّ دَخِيلِـــي
اِرْبَعِـــي، إنَّـــمَا يَرِيبُكِ مِنِّـــي إِرْثُ مَجْدٍ وَجِـــــدُّ لُـــبٍّ أَصِيـــلِ
عجبـــاً مـــا عَجِبْتُ لِلْعَاقِـــدِ المَا لَ ورَيْبُ الزَّمـــانِ جَـــمُّ الخُبُولِ
وَيُضِيـــعُ الَّـــذِي يَصِيرُ إِليـــهِ مِـــنْ شَـــقَاءٍ أَوْ مُلْكِ خُلْدٍ بِجِيـــلِ

وعاذلة معاوية بن مالك (معود الحكماء) تتهمه ـ لاتلافه ماله ـ بالغواية فيرد عليها بانه سعيد بهذا الغي ولايزال يعوده ما دام حيا يقول [٧٩] :

قالت سميـــة : قـد غويت بأن رأت حقـــا تناوب مالنـــا ووفـــود
غيٌّ لعمـــركِ لا أزال أعـــوده مـــا دام مـــالٌ عندنـــا مـــوجود

وعوف بن عطية الربابي ينقل عن عاذلته كبيشة لومها له لان الشيب الذي علا راسه لم يغيرمنه شيئاً وبقي على حاله متلاف للمال ، وهو يفخر بان الشيب لم يزده الا كرما الى كرمه وسخاء الى سخائه يقول [٨٠] :

وقالت كبيشـــــة مـــــن جهلـــــها : أشـــــيبا قديمـــا وحلـما معـــــارا
فمـــــا زادني الشيب إلا نـــــــدى إذا اســـــتروح المرضعات القتـــارا

((عذل الفتيان)) :

الفتوة مصطلح تم تداوله في التراث النقدي العربي قديما وحديثاً ويدل على نمط من العيش اختارته نخبة من العرب الطامحين الى مواقع الرياسة والتميز ، اتسمت حياة هؤلاء الفتيان بجملة من الممارسات التي سوغت ادراجهم ضمن هذا التصنيف لعل ابرزها الصيد والغزو والكرم مقرونه باللهو وتشراب الخمور والعبث مع الغواني ، فالفتوة على ذلك ليست تصنيفا عمريا وانما تصنيف سلوكي يمارسه الفتى والكهل والشيخ وهذا التفسير للمصطلح يؤسس لفروق نسبية ما بين دلالته اللغوية ودلالته الاصطلاحية اذ تصبح الفتوة نمط عيش وليست صفة تطلق على الرجل في مراهقته او في شباب قبل ان يكهل فالفتى ليس (بمعنى الشاب والحدث وانما بمعنى الكامل الجزل من الرجال ، يدلك على ذلك قول الشاعر :

ان الفتـــى حمال كـــل ملمـــــة ليس الفتـــى بمنعـــم الشـــبان)[٨١]

وما يعزز هذه الفكرة عن الفتوة ان العرب كانوا يتنادون بالفتى مع تقدم السن وتجاوز مرحلة الشباب وعادة ما يكون من يوسم بالفتوة فارسا وثاباً وشريفا نابغاً ومع ميل الباحث الى الاقرار بصحة الذهاب الى ان الصفات الكريمة هي من سمات الفتوه الى انه يميل الى ان ذلك لا يمنع من ان تقترن هذه الصفات بالفئة العمرية او تتزامن مع حداثة السن فالفتوة هي اعمال كريمة واخرى لاهية يمارسها الفارس وهو في ريعان الصبا ومقتبل العمر لان مع الشباب النشاط والتحفز والرغبة باللذة واللهو والتنقل وكثرة الاسفار ومع الكهولة والشيخوخة السكون والحكمة والاشباع ، فهذا المثقب العبدي الذي نطقت ناقته شكوى منه ومن ترحاله وكثرة لهوه ، يقول على لسانه ناقته :[٨٢]

تقـــــولُ إذا دَرأْتُ لها وَضِينـــــي أهـــذا دينـــهُ أبـــداً ودينـــــى ؟
أكـــلَّ الدَّهـــــرِ حـــلٌّ وارتحـــالٌ أمـــا يبقـــى علىَّ ومـــا يقينـى!
فأَبقـــــى باطِلـــي والجِدُّ منـــها كدُكّانِ الدَّرابِنَـــــــةِ المَطِيـــنِ

وقد شهر جملة من الشعراء بالفتوة وصفاتها وقد حددوا في شعرهم صفات الفتوة التي ترتكز على جملة من الفعال منها التردد على الغواني ، وشرب الراح ، واكرام الضيف ، وغض الطرف عن الدنايا ، وحفظ الجار في زوجه وغيرها ، ومن هؤلاء الاعشى الذي حدد بعض صفات الفتوة في قصيدته التي يقول فيها :[٨٣]

ذَرِينـــــي لكِ الوَيْلاتُ آتـي الغَوَانِيَـا مَتى كُنْتُ زَرّاعـــاً أسُوقُ السّوَانِيَـــا

فالفتـــى لاه وليس من شأنه ممارسة المهن المذلة كسوق السانية ، وهي الناقة التي يستقى عليها ، كناية عن مهنة الزراعة التي يأنف سادات الجاهلية من ممارستها .

والمثقب العبدي وهو من الفتيان ينصح اقرانه بأن يجتنبوا الـذم بالفعال الكريمة لكي يصح وسمهم بالفتوة يقول:[٨٤]

فـــإذا قُلْتَ نَعَـــمْ فاصبرْ لَـــها بِنَجَـــاحِ القَولِ، إنَّ الخُلْـــفَ ذَمُّ
واعْلَـــمَ انَّ الـــذَّمَّ نَقْصٌ للفَتَى ومَتَـــى لاَ يَتَّـــقِ الـــذَّمَّ يُـــذَمُّ

وبشر بن أبي خازم يعصي عذاله الذين لا يقرونه على لهوه ونزواته وبخاصة تلك التي يتجشم فيها عناء التسلل ليلا الى حبيبته والتي لا يأمن فيها عيون الرقيب وسيف أولي الامر ، يقول في مغامرته الليلية بحثا عن المتعة واللذة [٨٥]:

ليـــالي لا اطاوع مـــــن نهاني ويضفو فـــــوق كعبـــــي الازار
فأعصي عاذلي واصيب لهـــــوا واوذي فـــي الزيارة مـــــن يغار

والفتى راع لاقرانه حدب عليهم يقريهم ويسقيهم ويحسن رفادتهم مثلما يصور ذلك ربيعة بن مقروم الضبي الذي يفخر بانه يصبح اقرانه الفتيان بالخمرة المعتقة يقول [٨٦] :

وفتْيـــانٍ صِدْقٍ قد صَبَحْتُ سُلاَفَـــةً إذا الدِّيـــكُ في جَوْشٍ منَ اللَّيْلِ طَرَّبَـــا
سُخَامِيَّـــةً صَهْبَاءَ صِرْفاً، وتـــارةً تَعَاوَرُ أَيديهـــمْ شِـــوَاءً مُضَهَّبَـــا
ومَشْجُوجَـــةً بالماءِ يَنْزُو حَبابُها إذا المُسْمِعُ الغِرِّيـــدُ مِنها تَحَبَّبَـــا

وللفتيان صفة لازمة هي ترحالهم وكثرة طوافهم في البلاد وهذه صفة مشتركة بينهم وبين الفرسان ، فهذه جارة طرفة تعيره على تطوافه في الفيافي والقفار بعد ان وجدته غريب الاهل والدار ، فسالته اين اهله واين داره ؟ فدعا عليها ان تكون في مثل حاله يقول [٨٧] :

ولا غَـــرْوَ إلاّ جارَتي وسُؤالُـــها ألا هَـــلْ لنـــا أهـــلٌ ؟ سُئلتِ كَذلِكِ
تُعيِّـــرُ سَيري في البلادِ ورِحلَتـــي ألا رُبّ دارٍ لـــي ســـوى حُرّ دارِكِ

ومثلما شغف الفتيان بالترحال والاسفار والاغتراب شغفتهم الخمرة حتى باتوا لا يقدرون على تركها مع ما تفعل في شاربها من تخييل كاذب ، يقول المرقش الاصغر واصفا حاله وحال الفتيان مع الخمرة [٨٨] :

الـــزِّقُّ مُـــلْأَكٌ لمن كانَ لَـــه والمُـــلْأَكُ مِنـــهُ طويلٌ وقَصيـــرْ
منها الصَّبُوحُ الـــذي يَثْرُكُنِـــي لَيْثَ عِفـــرِّينَ والمـــالُ كَثِيـــرْ
فأوَّلَ اللَّيـــل ليثٌ خـــادِرٌ وآخِـــرَ الليـــل ضِبْعانٌ عَثُـــورْ
قَاتَـــلَكِ الله مِـــنْ مَشْرُوبَـــةٍ لـــو أنَّ ذا مـــرَّةٍ عنـــكِ صَبُورْ

والفتيان لا يتنازلون عن اسلوب حياتهم من سفر وترحال دائم وركوب للاهوال ومسامرة مع الندمان ومجالس للهو والخمر، يقول النمر بن تولب غير ابه للعاذلة التي لا تنفك تلومه[٨٩] :

قامـــت لتعذلني من الليل ، اسـمعي ســـــفه تبيتك الملامـــــة فاهجعي
لا تـــجزعي لغد فأمـــرغد لـــه أتعجليـــن الشـــر ما لـــم تمنعـــي
قامت تـــبكى أن ســـبأت لفتيـــة زقـــا وخابيـــة بعـــود مقطـــع

فالخمر ملازم للفتيان في حلهم وترحالهم لا يحلو مجلس لهم الا بها .

العذل على القلة :

يبدو ان طبيعة حياة العرب فرضت جملة من الحقائق التي لا زمت العربي واستقرت ركنا اساسا من اركان فخره ومديحه ، ولعل الكثرة العددية احد هذه الاركان اذ يكون النصر والعزة على الاغلب مقترنين بالكثرة بينما يكون الخذلان حليف القلـة ، ولهذا فأن قلة العدد كان هاجسا ارق الشعراء واقلقهم ، فهم في بيئة لا ترحم الضعيف وفي دائـرة لا تقوم قائمتها الا بالقوة والمنعة واذ لا تكون المنعة الا بالعدد والسلاح والمال فان قلة العدد والسلاح والمال او احداهما يعد هدما ونقضا لشرائط القوة وسببا في الهوان في اعين الناس ولهذا فان السمؤال بن عادياء حاول في قصيدته الشهيرة (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديـه جميـل) ان يستعيض بالفعال الكريمة عن قلة العدد في معرض رده على عاذلته يقول [٩٠] :

تـعيـــــرنا أنـا قـليـل عـديـدنـــــا فقلـــت لهـا إن الكـــــرام قليـــل
ومـا ضرنـــــا أنـا قـليل وجـارنـــا عـزيـــز وجـار الأكثريـــــن ذليـل

ثم يستطرد في الفخر بعشيرته ويسوق مكارمها وفعالها الشريفة من مثل قوله :

يـقرب حـب المـــوت آجـالنا لـنـــا وتـكـرهـــــه آجـالـهم فتـطـــــول
تسيل على حـــد الظبات نفوسنـــا وليســـت على غير الظبات تســيل
صفونـــــا فلم نكدر وأخلـص سرنا أنـــاث أطابت حملـــنا وفحـــول

وهو في هذا كله يخاطب عاذلته ويحاورها ليطلب منها اخيرا ان تسال الناس عن قومه وعن الاخرين الذين قارن بينهم وبين قومه لتعرف صدق حديثه وتتيقن من صواب ما ذهب اليه يقول :

ســـلي إن جـهلت الناس عنا وعنهم ولـيس ســـواء عـالـم وجـهـــول

لم تكن العاذلة عند السمؤال ورهط اخرين من العشراء الا انعكاسا لشعور واحساس داخليين فبعض الشعراء ممن يؤرقهم احساسهم بالنقد يفرغون ما يعتمل في صدورهم وما يجول في خواطرهم من خلال هذا المنحى الفني – العاذلة – فالسمؤال بدافع من شعوره بقلة عدد اعوانه يحاول ان يسقط شعوره ذاك على عاذلته الموهومة او المتخيلة ويجيبها بما يعيد الى نفسه شيئاً من سكينتها وتوازنها وارتياحها .

ولهذا فان هاجس القلة كان واضح المعالم في شعر السمؤال أذ اعاد ذكره في موضع اخر من ديوانه ولكنه استعاض عنه هذه المرة بحصنه الابلق ورأى ان القلة لا تضيره ولاتضير بنيه اذ انهم في حصن حصين وفي مكان يصعب ارتقائه ويمنع عنه اعدائه يقول [٩١] :

وَقَائِلَـــةٍ : مَـــا بَالُ أُسْرَةِ عادِيـــا تَبَارَى وفِيـــهِمْ قِلَّـــــةٌ وَخُمُـــولُ
هـــو الأبلق الفرد الذي شـاع ذكره يعز على مـــن رامـــــه ويطـــول
فأن بنـــي الديان قطب لقومـــهم تـــدور رحاهـــم حولهم وتجـول

ويبدو ان طبيعة حياة العرب فرضت جملة من الحقائق التي لازمت العربي واستقرت ركنا اساسا من اركان فخره ومديحه ولعل الكثرة العددية احد هذه الاركان ، اذ يكون النصر والعزة على الاغلب مقترنين بالكثرة بينما يكون الخذلان حليف الفلة ، ولان الانطباع السائد هو هذا فأن السمؤال يرى بنفسه حاجة الى الابتعاد عن هذا الحكم وادعاء نقيضه فهو لا يرى بأسا في قلة عديد عشيرته ويعوض عن ذلك بالفعال الكريمة في مناورة تبعد عنه وعن مناصريه حكم الذلة فهو لا يستطيع ان يقرن بقلة اصحابه نصرا في المعركة بل فعلا كريما هو اعزاز الجار .

وقد دار الفخر بكثرة العدد على السنة فحول شعراء الجاهلية من مثل قول عنترة في سياق فخره بفعاله وفعال قومه في احد ايام عبس على بني ضبة [٩٢] :

قَوْمـــــي صَمَامِ لمن أرادُوا ضيْمَهُمْ والقاهرون لـــكلَّ أغلبَ صـــــال
والمُطْعمُـــونَ وما عليْهِمْ نِعْمـــــةٌ والأكرَمـــــون أباً ومحتدَ خـــال

ثم يفخر بكثرة العدد ويشبه كثرة قومه بالحصى يقول :

نحن الحصى عـــددا ونحسب قومنـــا ورجالنـــا في الحرب غير رجـــال
منـــا المعين على النـــدى بفعاله والبـــذل في اللزبات بالامـــوال

ويبدو ان التشبيه بالحصى لغرض الكثرة مشهور عند اهل الجاهلية متداول على السنة الشعراء فها هو سلامة بن جندل يشبه قومه بني سعد بن زيد مناة بن تميم بالحصى لكثرتهم فيقول [٩٣] :

وانـــا كالحصى عـــــدداً ، وانا بـــنو الحرب ، التي فيـــها غـــرام

ويقول المرقش الاكبر مشبها كثرة قبيلته بالحصى موجها كلامه الى امرأة مفترضة يوحي سياق خطابها بانها عاذلة ومشككة فهو يدعوها الى السؤال عن قبيلته لتعرف ما جهلته : [٩٤]

هـــــــلا سالت بنا فوارس وائـــــل فلنـــــحن اســـــرعها الى اعدائـــــها
ولنـــــحن اكثرها اذا عـــــد الحصى ولنـــــا فواضلها ومـــجـــد لوائـــــها

الخاتمة

العذل والعاذلة موضوع شيق يبرز بشكل جلي عمق الشعر الجاهلي ورسوخ جذوره ، لقد تعرض هذا الارث الفكري لحملة من التشكيك وسمته بالشعر المنسوب والملفق استنادا لبعض الموضوعات التي طرقها والتي دار حولها شك مفاده تضمنه بعض المفاهيم الاسلامية المتأخرة التي لم تكن واضحة زمن الجاهلية ومع اقرارنا النسبي بوجاهة بعض هذه الملاحظات غير أن الدراسة المتأنية والفاحصة للشعر الجاهلي تدفع الى التيقن من ان معظم هذا الشعر صحيح ويعبر بما لا يقبل الشك عن تفاصيل حياة الجاهليين ونزعاتهم الفلسفية والفكرية ، ولعل بحثنا هذا ينتمي الى ذلك النوع من المقاربات المهمومة بالوصول الى نتائج مركبة فهي تكشف مكامن الجمال والشعرية في الوقت ذاته الذي تهتم بالتاصيل للشعر الجاهلي واثبات صحته ورسوخ جذوره في الحياة العربية يومذاك .

ان حوار العاذلة في شعر الجاهليين ومن بعدهم المخضرمين تقليد فني عبر من خلاله الشعراء عن مواقفهم من بعض القضايا الاجتماعية ، وعلى الرغم من التنوع الملحوظ في مواضيع العذل فأن الغالب على العذل موضوعان اساسان هما المال والموت ومعظم اغراض العذل دارت حول هذين الموضوعين ، فالعذل على الشيب والعذل على ركوب الاهوال وفلسفة الموت عند الفرسان والاستهزاء بالشاعر حين الكبر ، وشكوى الكبر وحنو الظهر والحنين الى الشباب والصبى والخوف من المصير المحتوم كلها تقع ضمن دائرة الموت بينما تقع الموضوعات الاخرى ضمن دائرة المال مثل الشكوى من الفقر والعذل على الاسراف في الكرم والقعود في الدار دون السعي الى الرزق . فالنساء لا يهمهن شيء اكثر من هذين الموضوعين وقد لحض علقمة بن عبدة موقف النساء من هذين الموضوعين فقال(٩٥) :

فـأن تسألوني فـــي النساء فانني بصيـر بادواء النســـاء طبيب
اذا شاب رأس المرء او قل ماله فليس لـــه مـــن ودهـــن نصيب

الهوامش

(١) لسان العرب / ابن منظور / ج ١١ ، ص : ٤٣٧
(٢) مختار الصحاح / الرازي ص١ ٤٢
(٣) المفضليات / المفضلية (١) ص : ٣٠
(٤) الاصمعيات / الاصمعية (٣٣) ، ص : ١٢٠
(٥) ديوان امرؤ القيس/ ق(٧٧)، ص:٣٢١
(٦) الاصمعيات / الاصمعية (١١) ، ص ٤٩
(٧) نفسه / الاصمعية (١٢) ، ٥٣-٥٤
(٨) ديوان حسان بن ثابت \ق (٣) ، ص : ٢٩
(٩) ديوان شعر حاتم الطائي / ق (٤٥) ، ص : (٢٩٩-٢٣١)
(١٠) ديوان عمر بن كلثوم / ق ٢٦ ص ٥٧
(١١) ديوان عروة بن الود / ص : ٦٦-٧٥
(١٢) القصيدة الجاهلية في المفضليات / مي خليف / ص ١٩٣
(١٣) ديوان الطفيل الغنوي / ق : (٥) ، ص : (٥٥-٦١)
(١٤) قصيدة الجاهلية في المفضليات / مي خليف / ص ٢٢
(١٥) ينظر دراسات في الشعر الجاهلي / د. يوسف خليف / ص : ١٢٠وبحث العاذلة وبنية القصيدة (انترنيت)
(١٦) الاصمعيات / الاصمعية (١٩) ، ص : ٧٤ – ٧٥
(١٧) شرح الحماسه / المرزوقي ص ٥٤٦ عن الاصمعيات / ص : ١٦١
(١٨) الاصمعيات / الاصمعية (٥٦) ، ص ١٦١-١٦٢
(١٩) المفضليات / المفضلية (٧) ، ص (٩٧)
(٢٠) نفسه / المفضلية (٢٢) ، ص (١١٩-١٢٠)
(٢١) نفسه / المفضلية (٥٣) ،ص (٢٣٦)
(٢٢) نفسه/ المفضلية (١٠٥) ، ص (٣٥٦)
(٢٣) الاصمعيات / الاصمعية (١٥) ، ص (٦٢- ٦٣)
(٢٤) المفضليات / المفضلية (٦٧) ، ص : ٢٦٨- ٢٦٩
(٢٥) نفسه / المفضلية (٧٥) ، ص : ٢٨٤
(٢٦) نفسه / المفضلية (١٢٦) ، ص : ٤٢١- ٤٢٢
(٢٧) ديوان الحطيئة / ص : ١٠٩
(٢٨) الاصمعيات / الاصمعية (٢٦) ، ص : ٩٨
(٢٩) ديوان سلامة بن جندل / ق ٥ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٨
(٣٠) الاصمعيات : ق ٣٠ ص ١١٤-١١٥

(٣١) نفسه / ق ٦٠ ص ١٧٠
(٣٢) نفسه / ق ٦١ . ص ١٧٤
(٣٣) ديوان عروة بن الورد / ص :١٠٠
(٣٤) ديوان دريد بن الصمة / ق ٦٥ ، ص :١٧٦
(٣٥) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس / ص : ٤٥
(٣٦) المفضليات / المفضلية (١٦) ص : ٨٢
(٣٧) نفسه / المفضلية ١٨ ، ص : ١٠٢-١٠٣
(٣٨) نفسه / المفضلية (٣٩) ص : ١٨٦
(٣٩) نفسه / المفضلية (١٣٥) ، ص : ٤١٨
(٤٠) الاصمعيات / الاصمعية (٥٠) ، ص : ١٥٠
(٤١) ديوان ابن مقبل / ص : ٦٩ – ٧٠
(٤٢) الاصمعيات / ق ٣٦ ، ص : ١٢٤
(٤٣) ديوان عروة بن الورد / ص : ٤٣
(٤٤) ديوان الطفيل الغنوي / ق ٥ ، ص : ٥٧- ٥٨
(٤٥) ديوان ابي زبيد الطائي / ق ٤٣ ، ص : ١٥١
(٤٦) المفضليات / المفضلية (٤) ، ص : ٣٤- ٣٦
(٤٧) الحياة والموت في الشعر الجاهلي / د مصطفى عبد اللطيف جياووك / ص :١٩٧ – ١٩٨
(٤٨) ديوان أمرؤ القيس / ق ١١ ، ص : ٩٧
(٤٩) ديوان الهذليين / ج١ ، ص : ١٢١
(٥٠) المفضليات / المفضلية (٤٤) ، ص : ٢١٦
(٥١) نفسه / المفضلية (٥٤) ، ص : ٢٣٨ -٢٣٩
(٥٢) نفسه / المفضلية (٥٧) ، ص :٢٤٩
(٥٣) نفسه / المفضلية (١٢٨) ، ص : ٤٣٠
(٥٤) ديوان دريد بن الصمة / ص : ٥٩
(٥٥) ديوان المتلمس / ص : ١٨٢
(٥٦) ديوان طرفة / ص : ١١٤
(٥٧) ديوان عدي بن زيد / ق (٢٣) ، ص : ١٠٣
(٥٨) ديوان عنترة / ص :٢١٠
(٥٩) ديوان سلامة بن جندل / ق ٦ ، ص : ٢٠٠ ـ ٢٠١
(٦٠) ديوان عروة بن الورد / ص : ١٠٧
(٦١) نفسه / ص : ١٣١
(٦٢) ديوان شعر الحادرة / ق ٥ ، ص : ٨٢- ٨٦
(٦٣) ديوان دريد بن الصمة / ق (٥٠) ، ص : ١٥٣
(٦٤) الاصمعيات / الاصمعية (١٩) ، ص : ٧٤
(٦٥) شعر عمرو بن شاس الاسدي / ق ٣٦ ، ص :٨٣
(٦٦) شعر النابغة الجعدي / ص :٤٣
(٦٧) ديوان شعر حاتم الطائي / ق ٦٠، ص :٢٦٠
(٦٨) الاصمعيات / الاصمعية (١٢) ، ص : ٥٣ ـ ٥٦
(٦٩) ديوان لبيد / ق ٢٥ ، ص : ٧٨
(٧٠) نفسه / ق (٢٠) ، ص :٦٠
(٧١) شرح ديوان لبيد / ق (٣٥) ، ص : ٢٤٦
(٧٢) ديوان حسان بن ثابت / ق ٦ ، ص : ٤٤
(٧٣) ديوان شعر حاتم / ق ١٢٢ ، ص : ٣٠٥
(٧٤) ديوان النمر بن تولب / ق ٢٥، ص : ٧١
(٧٥) شعر تأبط شراً / ق ٢٢ ، ص : ١١١
(٧٦) ديوان دريد بن الصمة / ص ٥٩ ، والقصيدة في الاصمعيات / الاصمعية (٢٨) ، ص : ١٠٧
(٧٧) شعر عمرو بن شاس الاسدي / ق ٤ ، ص : ٤١
(٧٨) المفضليات / المفضلية (٥٩) ، ص :٢٥٠ – ٢٥١
(٧٩) نفسه / المفضلية (١٠٥) ، ص : ٣٥٦
(٨٠) نفسه / المفضلية (١٢٤) ، ص : ٤١٣

(٨١) لسان العرب / مادة : فتا
(٨٢) المفضليات / المفضلية (٧٩) ص :٢٩٢
(٨٣) ديوان الاعشى / ق (٦٦) ، ص : ٣٧٩
(٨٤) المفضليات / المفضلية (٧٧) ، ص : ٢٩٣
(٨٥) نفسه / المفضلية (٩٨) ، ص : ٣٤٠
(٨٦) نفسه / المفضلية (١١٣) ، ص : ٣٧٦
(٨٧) الاصمعيات / الاصمعية (٤٩) ، ص : ١٤٩
(٨٨) نفسه / الاصمعية (٥٢) ، ص : ١٥٣
(٨٩) شعر النمر بن تولب / ق (٢٥) ، ص : ٧١
(٩٠) ديوان السمؤال / ص ١٠- ١٧
(٩١) نفسه / ص : ٥١
(٩٢) ديوان عنترة / ص : ١٩٣
(٩٣) ديوان سلامة بن جندل السعدي / ق (٢٢) ، ص : ٢٥١
(٩٤) المفضليات / المفضلية (٥١) ، ص : ٢٣٤-٢٣٥
(٩٥) المفضليات / المفضلية (١١٩) ، ص : ٣٩٢

المصادر والمراجع

(١) الاصمعيات / تحقيق : احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون / دار المعارف بمصر / ط ٢ ١٩٦٤
(٢) الحياة والموت في الشعر الجاهلي / د . مصطفى عبد اللطيف جياووك/ منشورات وزارة الاعلام / العراق / ١٩٧٧
(٣) القصيدة الجاهلية في المفضليات / مي خليف / مكتبة غريب / القاهرة ١٩٨٩
(٤) المفضليات / تحقيق وشرح : احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون / دار المعارف – مصر / ط٣ ١٩٦٤
(٥) دراسات في الشعر الجاهلي / يوسف خليف / مكتبة غريب – القاهرة / ١٩٨١
(٦) ديوان الاعشى الكبير/ شرح وتعليق : د. محمد محمد حسين / دار النهضة العربية ـ بيروت / ط١ ١٩٧٤
(٧) ديوان الحطيئة / تحقيق : نعمان امين طه / مطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر / ط١ ١٩٥٨
(٨) ديوان السمؤال / تحقيق : الشيخ محمد حسن ال ياسين / مطبعة المعارف – بغداد ١٩٥٥
(٩) ديوان الطفيل الغنوي / تحقيق : محمد عبد القادر احمد / دار الكتاب الجديد / بيروت ط ١ ١٩٦٨
(١٠) ديوان المتلمس / تحقيق : فولرس / لينزك / ١٩٠٣
(١١) ديوان الهذليين / مصور عن طبعة دار الكتب ، الدار القومية ـ مصر ١٩٦٤
(١٢) ديوان امرؤ القيس / تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم / دار المعارف – مصر / ١٩٦٤
(١٣) ديوان حسان بن ثابت / تحقيق : د . وليد عرفات / تولى طبعه ابناء سلسلة جب التذكارية
(١٤) ديوان دريد بن الصمة / تحقيق : د . عمر عبد الرسول / دار المعارف بمصر
(١٥) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس / تحقيق : الاستاذ عبد العزيز الميمني / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ١٩٩٢
(١٦) ديوان سلامة بن جندل / تحقيق : د . فخر الدين قباوة / المكتبة العربية بحلب / ط ١ ١٩٦٨
(١٧) ديوان شعر الحادرة / تحقيق : د . ناصر الدين الاسد / دار صادر - بيروت / ١٩٧٣
(١٨) ديوان شعر حاتم الطائي / دراسة وتحقيق : د . عادل سليمان جمال / مطبعة المدني / القاهرة
(١٩) ديوان طرفة بن العبد / تحقيق : فوزي عطوي / الشركة اللبنانية للكتاب ـ بيروت/ ط ١ ١٩٦٩
(٢٠) ديوان عدي بن زيد العبادي / حققه وجمعه: محمد جبار المعيبد / شركة الجمهورية للنشر والطبع ـ بغداد / ١٩٦٥
(٢١) ديوان عروة بن الورد / تحقيق : عبد المعين الملوحي / وزارة الثقافة والارشاد القومي / سوريا
(٢٢) ديوان عمرو بن كلثوم / جمع وتحقيق وشرح د : اميل بديع يعقوب / دار الكتاب العربي / بيروت / ط١ ٢٠٠٦
(٢٣) ديوان عنترة / دار صادر – بيروت
(٢٤) ديوان لبيد بن ربيعة : شرح ابراهيم الجزيني / دار القاموس الحديث / بيروت د . ت
(٢٥) شرح ديوان لبيد بن ربيعة / تحقيق : د . احسان عباس / الكويت ١٩٦٢
(٢٦) شعر ابي زبيد الطائي / جمعه وحققه : د . نوري حمودي القيسي / مطبعة المعارف – بغداد ١٩٦٧
(٢٧) شعر النابغة الجعدي / تحقيق : عبد العزيز رباح / مشورات المكتب الاسلامي / دمشق / ط ١ ١٩٦٤
(٢٨) شعر النمر بن تولب / صنعة : د . نوري حمودي القيسي / مطبعة المعارف – بغداد
(٢٩) شعر تابط شراً / دراسة وتحقيق : سلمان داود القره غولي وجبار تعبان جاسم/ مطبعة الاداب– النجف/ ط ١ ١٩٧٣
(٣٠) شعرعمرو بن شأس الاسدي / تحقيق : د . يحيى الجبوري / دار القلم / الكويت / ط ٢ ١٩٨٣
(٣١) شعر عمرو بن معد يكرب / تحقيق : مطاع طرابيشي / مطبوعات مجمع اللغة العربية ـ دمشق / ١٩٧٤
(٣٢) لسان العرب / ابن منظور / دار صادر – بيروت
(٣٣) مختار الصحاح / محمد بن ابي بكر الرازي / دار الكتاب العربي / بيروت